رجوع الضمير إلي أحد المتقدمين عليه في القرآن الكريم

مواقعه وأسراره البلاغية

بقلم الدكتور

أنس محمد عبد المنعم الغنام

مدرس البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالزقازيق

جامعة الأزهر

المقدمـــة

الحمد لله العليم بمكنونات الضمائر ، المطلع على خبيئات القلوب والسرائر ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله الله لعباده بشيرا ونذيرا ، وداعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا. اللهم صل ، وسلم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا ، وبعد ٠

فإن القرآن الكريم هو كلمة الله الخالدة وحجته الباقية ، أنزله الله على قلب رسوله محمد – ﷺ– ؛ ليكون دليلا على صدق دعوته ، وبرهانا على صحة بعثته ؛ لذلك أتى الله – عز وجل – به مشتملا على أوجه كثيرة من الإعجاز ، حتى يُعجز العرب وغيرهم عن معارضته ، أو حتى الإتيان بسورة من مثله ، ولا يزال هذا العجز قائما إلى اليوم وحتى تقوم الساعة ، وهو دليل واضح وبرهان لائح على أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله – عز وجل – وليس بكلام بشر ٠

وإذا كانت أوجه الإعجاز كثيرة ، فإن أعظم هذه الأوجه وأشهرها هو الإعجاز البلاغي ، وذلك لأن العرب كانوا فرسان القول وأرباب البيان ، وقد عُرفوا بذلك وشُهروا ، فإذا ما أتى القرآن معجزا لهم فى ميدانهم الذى سبقوا فيه غيرهم ، كان ذلك دليل صدق على أن هذا القرآن هو كلام الله – عز وجل – ، وأن محمدا – ﷺ– هو رسوله المرسل إليهم بهذا القرآن بشيرا ونذيرا ٠

لذلك توجهت أنظار العلماء قديما وحديثا إلى دراسة بلاغة القرآن الكريم ، والتنقيب عن أسرارها ، والبحث في وجوه إعجازها ، وأخذوا يبحثون عن أسرار النظم القرآني الكريم وراء كل جملة ، بل وراء كل كلمة ، بل وراء كل حرف ؛ لأنهم يعلمون أن كل حرف وُضع فيه بمقدار ، وكل كلمة جاورت أختها بميزان ، وكل جملة أخذت مكانها بحساب ٠

ولكن مع كثرة هذه الدراسات التي أربت على الألوف إلا أن القرآن الكريم ما زال مليئا بأسرار نظمه التي تحتاج من يستخرجها ، ويهتك حجاب الستر عنها. فالقرآن الكريم كالنبع الفياض لا ينضب معينه ، ولا يغيض ماؤه مهما أخذ منه الآخذون ما يروى ظمأهم، ويذهب عطشهم٠

ومن الأساليب التي وردت في القرآن الكريم أن يتقدم مذكوران ثم يرجع الضمير إلى أحدهما دون الآخر ، مع أن الأصل أن يرجع الضمير إليهما بصيغة المثنى. فهذا الأسلوب قد استوقفني كثيرا ، وأخذت اتساءل لماذا رجع الضمير إلى أحد المتقدمين دون الآخر ؟ ولماذا يرجع الضمير أحيانا إلى المتقدم الأول ، وأحيانا إلى المتقدم الثاني ؟ لابد أن يكون وراء ذلك سبب قصد إليه القرآن الكريم ، واقتضاه نظمه المبدع ، وهذا أمر لا شك فيه ؛ لأن القرآن لم يُبن نظمه حسب ما اتفق ، وإنما بُنى على نظام دقيق ، وتركيب محكم ، كل كلمة فيه موضوعة في مكانها لهدف وغاية ، والمطلوب منا أن نبحث عن هذا الهدف ، وأن نصل إلى هذه الغاية٠

ومن هنا تنبع أهمية هذا الموضوع ، فهو محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات ، والوصول إلى العلل والمقاصد من وراء هذا الأسلوب ، فكان هذا البحث والذى عنونته بـ

رجوع الضمير إلى أحد المتقدمَيْن عليه في القرآن الكريم
مواقعه وأسراره البلاغية

أحاول فيه قدر الجهد والطاقة أن أصل إلى بعض الأسرار البلاغية وراء هذا الأسلوب ، وأن أصل إلى المعاني الشريفة التي قصدها النظم القرآني من خلاله٠

أما منهجي في هذا البحث فهو المنهج التحليلي الذى يحلل هذا الأسلوب تحليلا بلاغيا يكشف عما فيه من الأسرار البلاغية ، والدقائق

التعبيرية ، والتى أتى بها النظم الكريم ؛ لكى تحقق مضمون هذا الأسلوب ، وتؤكد الغرض الذى قصد إليه .

هذا ، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يشتمل على :

مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، وفهرس المراجع .

أما المقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع ، مع بيان خطته ، والمنهج الذى سرت عليه فيه .

التمهيد : عرضت فيه لبيان قيمة هذا الأسلوب عند العرب ، مع بيان بلاغته ، ثم حصر لمواقعه فى القرآن الكريم .

أما المبحث الأول فهو: الآيات المتعلقة بالله عز وجل ورسوله ﷺ .

والمبحث الثاني : الآيات المتعلقة بقصص بعض الأنبياء .

والمبحث الثالث : الآيات المتعلقة بعموم الناس .

الخاتمة : بينت فيها أهم نتائج هذا البحث .

الفهرس : فيه أهم المراجع التي استعنت بها في هذا البحث .

وبعد ، فهذا هو منتهى جهدي وطاقتي في هذا البحث ، ولا أدعى أننى وصلت فيه إلى ما يرضى المتطلعين إلى معرفة أسرار النظم القرآني الكريم ، المتعطشين إلى الوقوف على معانيه ، ولكن ما هي إلا محاولة على طريق البحث عن هذه الأسرار ، فما كان منها من صواب فمن الله – عز وجل – ، وما كان فيها من خطأ فمنى ومن الشيطان. واسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، إنه أكرم مسئول ، وأعظم مأمول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

والحمد لله رب العالمين

الباحث / أنس محمد عبد المنعم محمد الغنام

المدرس بقسم البلاغة والنقد

التمـــهيد

يعد رجوع الضمير إلى أحد المذكورين دون الآخر أسلوب من الأساليب المعروفة لدى العرب ، وقد استعملوه طلبا للإيجاز والاختصار، حيث إن المذكورين المتقدمين قد اشتركا في المعنى ، فإذا رجع الضمير إلى أحدهما فإن المخاطب يعلم أن الآخر مقصود بهذا الضمير ، إذا ليس هناك التباس في وضوح المقصود ، أو تعمية في بيان المراد ؛ لذلك كان الأولى هو الإيجاز والاختصار٠

قال الإمـــام أبو عبيـــدة في معرض حديثه عن قولـــه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] – :" صار الخبر عن أحدهما، ولم يقل «ولا ينفقونهما»، والعرب تفعل ذلك ، إذا أشركوا بين اثنين قصروا فخبّروا عن أحدهما استغناء بذلك وتخفيفا، لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه ، ودخل معه في ذلك الخبر"[2]٠

وقال الإمام الواحدي – أيضا – في بيان أن هذا الأسلوب من كلام العرب ، وطرائقها في التعبير ، قال نقلا عن الإمام المبرد[3] :" وهذا من كلام العرب المستقيم أن يذكروا الشيئين اللذين يرجعان إلى معنى مما يطلب فيهما ، فيردوا الخبر إلى أحدهما استغناء واختصارًا ، كقوله:

---

(١) سورة : التوبة ٠ الآية : ٣٤

(٢) مجاز القرآن ٠ أبو عبيـدة معـــمر بن المثنى ٠تحقـــيق/ محمد فؤاد سزكين ٢٥٧/١ الطبعة: ١٣٨١ هـ ٠الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة٠

(٣) لم أعثر على هذا النص فى كتب المبرد المطبوعة ٠

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ}[١] ، {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا}[٢]،،[٣] .

والأكثر والأجود عند العرب هو رجوع الضمير إلى المذكور الثاني ؛ لأنه الأقرب إلى الضمير ، وقد يرجع الضمير إلى الأول لمعنى يقصده المتكلم ويرمى إليه ، كأن يكون هو الأهم ، أو الأشرف أو غير ذلك ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾[٤] حيث رجع الضمير إلى التجارة دون اللهو ؛ لأنها أهم.

يقول الإمام الفراء :" جعل الهاء للتجارة دون اللهو .... ولو قيل: انفضوا إليه، يريد: اللهو كان صوابا، كما قال: «ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا»[٥] ، ولم يقل: بها. ولو قيل: بهما، وانفضوا إليهما كما قال: «إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما»[٦] ، كان صوابا ، وأجود من ذلك في العربية أن تجعل الراجع من الذكر للآخر من الاسمين وما بعد ذا فهو جائز. وإنما اختير في انفضوا إليها- في قراءتنا وقراءة عبد الله- لأن التجارة كانت أهم إليهم"[٧].

ويعد هذا الأسلوب لونا من ألوان الحذف ، حيث يُقتصر على رجوع الضمير إلى أحد المتقدمين وحذف ما يدل على الثاني ، والذى يفهم من

---

(١) سورة : البقرة . الآية : ٤٥
(٢) سورة : التوبة . الآية : ٣٤
(٣) التفسير البسيط.للإمام للواحدى ٤٦٢/٢١ ط: الأولى، ١٤٣٠ هـ.الناشر: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
(٤) سورة : الجمعة . الآية : ١١
(٥) سورة : النساء . الآية : ١١٢
(٦) سورة : النساء . الآية : ١٣٥
(٧) معانى القرآن . للفراء.تحقيق / أحمد يوسف النجاتي وآخرون ١٥٧/٣ الطبعة: الأولى الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر.

سياق الكلام ؛ لذلك ذكر الإمام الزركشي في كتابه البرهان هذا الأسلوب فى باب الحذف ، وجعله أحد أنواعه في القرآن الكريم[1].

بلاغة هذا الأسلوب :

الأول: الإيجاز والاختصار، فما دام المعنى واضحا ، وليس هناك إلباس أو تعمية يكون الأفضل عندئذ هو الإيجاز بالاقتصار على رجوع الضمير إلى أحد المتقدمين دون الآخر ، والبلاغة كما هو معروف هى الإيجاز.

الثاني: هو توجيه ذهن المخاطب ، وإمالة فكره وعقله إلى المذكور الذى رجع إليه الضمير ، وجعله فى بؤرة وعيه واهتمامه ، حتى يبدى له اهتماما وتركيزا ، ومنشأ هذا التركيز أن خروج الكلام عن المألوف والنسق المعروف يلفت العقل ، وينبه الذهن. فإن المعروف فى نسق الكلام هو رجوع الضمير مثنى إذا تقدمه مذكوران ، فإذا سار الكلام على هذا النحو فإنه لا ينبه الذهن ولا يلفت العقل ، لكن إذا خالف الكلام نسقه المعروف عندها ينتبه الفكر ، ويلتفت العقل لهذه المخالفة فيقف عندها متأملا متفكرا ، عندها يصل إليه المعنى الذى قصده المتكلم من وراء رجوع الضمير إلى هذا المذكور دون الآخر.

وذلك مثل نصب أحد المعطوفات المرفوعة على الاختصاص ، كقوله تعالى: ﴿ ... وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[2] ، حيث نصب (وَٱلصَّٰبِرِينَ)

(١) ينظر : البرهان فى علوم القــــرآن. للزركشى. تحقيق/ أبى الفضل الدماطى.صـ ٧٠١ ط : ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م . دار الحديث – القاهرة.

(٢) سورة : البقرة . الآية : ١٧٧

على الاختصاص ، والأصل أن ترفع ؛ لأنها معطوفة على (وَٱلْمُوفُونَ) ٠

يقول الإمام أبو السعود :" {والصابرين} نصب على الاختصاص ، غير سبكه عما قبله ؛ تنبيها على فضيلة الصبر وميزته ، وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله. قال أبو علي: إذا ذكرت صفات للمدح أو للذم فخولف في بعضها الإعراب ، فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعا ؛ لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ، ومزيد اهتمام بشأنه"(١) .

ورجوع الضمير إلى أحد المتقدمَين من هذا الباب فهو تغيير للمألوف؛ للفت الذهن وتنبيه العقل إلى الاهتمام بالمعاني التي قصدها المتكلم من وراء هذا التغيير ٠

مواقع هذا الأسلوب في القرآن الكريم:

ورد هذا الأسلوب في مواقع كثيرة في القرآن الكريم بلغت – حسب ما ورد في هذا البحث – عشرين موضعا ، مما يدل على أصالة هذا الأسلوب، وقيمته البلاغية الكبيرة في لفت الأذهان إلى المعاني التي قصد القرآن الكريم إيصالها إلى المخاطبين ٠

وقد تنوعت صور هذا الأسلوب حسب المذكورين المتقدمين ، فمنها ما يكون المذكوران من قبيل المعطوفات وهو الأكثر ، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾(٢) ، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ٠٠٠

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٠ للإمام أبو السعود ١٩٤/١ الطبعة : بدون الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ٠

(٢) سورة : التوبة ٠ الآية : ٦٢

الآية ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات، ومنها ما يكون من قبيل المثنى مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢] ، فالمذكوران المتقدمان هما : البحران ، وعاد الضمير إلى أحدهما فى قوله : (وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ) ، ومنها ما يكون المذكوران معروفين من خلال سياق الكلام مثل قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[٣] ،فالمذكوران هما: رسول الله– ﷺ– وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه٠

كما تنوعت – أيضا – صور هذا الأسلوب حسب مرجع الضمير ، فمنها ما يرجع الضمير فيه إلى المذكور الثاني وهو الأكثر والأجود – كما قال الفراء – ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٤] ، ومنها ما يرجع الضمير فيه إلى الأول لغرض بلاغي يتطلبه المقام مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾[٥] ، وقد سبق ذكر هذا[٦] ٠

(١) سورة ٠ الأنفال ٠ الآية : ٢٤
(٢) سورة ٠ فاطر ٠ الآية : ١٢
(٣) سورة : التوبة ٠ الآية : ٤٠
(٤) سورة : النساء ٠ الآية : ١١٢
(٥) سورة : الجمعة ٠ الآية : ١١
(٦) ينظر : صـ من البحث

ومواقع هذا الأسلوب حسب ترتيبها في القرآن الكريم هي:

١- ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[١].

٢- ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٢].

٣- ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ ... الآية ﴾[٣].

٤- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[٤].

٥- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ... الآية ﴾[٥].

٦- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا ... الآية ﴾[٦].

٧- ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ... الآية ﴾[٧].

٨- ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ... الآية ﴾[٨]

٩- ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ ... الآية ﴾[٩].

١٠- ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١٠].

---

(١) سورة : البقرة ، الآية : ٤٥
(٢) سورة : النساء ، الآية : ١١٢
(٣) سورة : الأنعام ، الآية : ١٣٨
(٤) سورة : الأنفال ، الآية : ٢٠
(٥) سورة : الأنفال ، الآية : ٢٤
(٦) سورة : التوبة ، الآية : ٣٤
(٧) سورة : التوبة ، الآية : ٤٠
(٨) سورة : التوبة ، الآية : ٦٢
(٩) سورة :التوبة ، الآية : ٧٤
(١٠) سورة : يونس ، الآية : ٨٧

١١-﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا ٠٠الآية ﴾[١] .

١٢-﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ٠٠٠ الآية ﴾[٢] .

١٣-﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ٠٠٠ الآية ﴾[٣] .

١٤-﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[٤] .

١٥-﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٥] .

١٦-﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ٠٠٠ الآية ﴾[٦] .

١٧-﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ٠٠٠الآية ﴾[٧] .

١٨-﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[٨]

١٩-﴿ فَأَخَذَتْهُ رَجْفَةُ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[٩] .

٢٠-﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾[١٠]

---

(١) سورة : النحل ٠ الآية : ٦٧
(٢) سورة : الكهف ٠ الآية : ٤٩
(٣) سورة ٠ طه٠ الآية : ٣٨-٣٩
(٤) سورة ٠طه ٠ الآية : ١١٧
(٥) سورة ٠النور ٠ الآية : ٤٨
(٦) سورة : سبأ ٠ الآية : ٣٧
(٧) سورة : فاطر ٠ الآية : ١٢
(٨) سورة ٠الفتح٠ الآية : ٩
(٩) سورة : الذاريات ٠ الآية : ٤٠
(١٠) سورة : الجمعة ٠ الآية : ١١

المبحث الأول

الآيات المتعلقة بالله – عز وجل – ورسوله ﷺ.

وأول هذه الآيات قوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[١] .

نلحظ في هذه الآية تقدم ذكر الله – عز وجل – وذكر رسوله – ﷺ – ، ولكن النظم القرآني وحد الضمير في قولـــه:(أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) ، والأصل أن يكون ضميرا مثنى (يرضوهما)[٢] .

وهذا الضمير المفرد يصح رجوعه إلى الله – عز وجل – ، أو إلى الرسول– ﷺ– ؛ لأن المسلم مطالب بإرضاء الله ، وإرضاء رسوله ، ويجوز الاكتفاء بأحدهما عن الآخر ، ولكن الأولى أن يكون راجعا إلى الله – عز وجل – ؛ لأنه هو الأليق بتعظيمه ، وحسن التأدب معه ، فلا يليق أبدا أن يجتمع ذكر الله – عز وجل – ، وذكر أحد من خلقه ، حتى ولو كان رسول الله – ﷺ– ثم يعود الضمير إلى غيره ، هذا بالإضافة إلى أن رضا الله – عز وجل – هو الأهم ، وفى هذا يقول ابن عاشور :" والضمير المنصوب في يرضوه عائد إلى اسم الجلالة ؛ لأنه الأهم في الخبر، ولذلك ابتدئ به"[٣].

هذا، وقد اختلفت أنظار العلماء في بيان سر إفراد الضمير في هذه الآية على عدة أقوال هي :

---

(١) سورة : التوبة . الآية : ٦٢

(٢) ينظر : معانى القرآن .للفراء ٤٤٥/١

(٣) التحرير والتنوير . للشيخ / محمد الطـــاهر بن عاشور ٢٤٥/١٠ سنة النشر: ١٩٨٤ هـ . الدار التونسية للنشر – تونس.

الأول: تعظيم الله – عز وجل – بإفراد الضمير العائد إليه ، بحيث لا يثنى مع أحد من خلقه في ضمير واحد يجمعهما ، حتى ولو كان رسول الله – ﷺ– ؛ لأن ذلك يقتضى نوعا من التسوية بين الله ، وبين خلقه[١] ؛ لذلك كان إفراد الضمير فيه إرشاد إلى تعظيم الله – عز وجل – ، ولزوم الأدب معه ، وهذا الأدب القرآني الكريم طبقه الرسول– ﷺ– ، فعندما سمع خطيبا يخطب ، ويقول : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى فقال – ﷺ– :(بئس الخطيب أنت هلا قلت ومن يعص الله ورسوله)[٢] ، وهذا السبب – أيضا – من ضمن أسباب إفراد الضمير العائد إلى الله ورسوله فى كل الآيات التي ستتأتى لاحقا في هذا البحث٠

الثاني :أن العالم بالأسرار والضمائر هو الله – تعالى – ، وإخلاص القلب لا يعلمه إلا الله، فلهذا السبب خص – تعالى – نفسه برجوع الضمير إليه[٣]٠

الثالث: أن رضا الله – عز وجل – هو المقصود الأساس من وراء جميع الطاعات والعبادات التي افترضها على عباده ؛ لذا كان من الأنسب رجوع الضمير إليه [٤]٠

الرابع: بيان أن رضا الله –عز وجل – هو عين رضا رسوله – ﷺ– وكأنهما شيء واحد ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وفى هذا يقول الشيخ / محمد رشيد رضا :" كان الظاهر أن يقال: " يرضوهما " ، ونكتة العدول عنه إلى: (يرضوه) الإعلام بأن إرضاء رسوله من حيث إنه رسوله ، عين

---

(١) ينظر : روح البيان ٠ لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، ٤٥٧/٣ ط: بدون الناشر: دار الفكر – بيروت٠

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٨٧٠) كتاب الجمعة – باب تخفيف الصلاة والخطبة٠

(٣) المصدر نفسه ٩٢/١٦

(٤) التفسير الكبير ٠فخر الدين الرازي ٩١/١٦ الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

إرضائه تعالى ؛ لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به ، وهذا من بلاغة القرآن في الإيجاز، ولو قال: (يرضوهما) لما أفاد هذا المعنى ؛ إذ يجوز في نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر، وهو خلاف المراد هنا، وكذلك لو قيل: " والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه " لا يفيد هذا المعنى أيضا، وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل،"[١].

ونلحظ أن الله – عز وجل– جعل رضا رسوله من رضاه ؛ لبيان شرف النبي – ﷺ– ، وعلو مقامه عند ربه ، كما أكد هذا الشرف الرفيع بإضافة الرسول – ﷺ– إلى ذاته العلية فقال: (وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ) ، وهذا فيه أكبر تسلية للرسول – ﷺ– وتطييب لخاطره بسبب ما وقع عليه من إيذاء من المنافقين[٢] ، حيث إن هذه الآية واقعة فى سياق بيان إيذاء المنافقين لرسول الله – ﷺ– ، وتهديدهم بالعذاب الأليم أن لم يكفوا عن إيذائه ، وفى هذا يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣].

ومن الآيات – أيضا – التى ورد فيها إفراد الضمير العائد إلى الله ورسوله ، قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ

(١) تفسير المنار ٠للشيخ/محمد رشيد رضا ٤٥١/١٠ سنة النشر: ١٩٩٠ م الناشر: الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ٠

(٢) ينظر:أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية ٠د/ حسن طبل٠صـ٩٤ ط :١٤١٨هـ ١٩٩٨م٠ دار الفكر العربى – القاهرة٠

(٣) سورة ٠ التوبة ٠ الآية : ٦١

وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ٠٠٠الآية ﴾[1].

هذه الآية نزلت فى رجل من المنافقين يدعى الجلاس بن سويد بن الصامت، قال: إن كان ما جاء به محمد حقا، لنحن أشر من الحمر! "، فقال له ابن امرأته: والله، يا عدو الله، لأخبرن رسول الله – ﷺ– بما قلت، فإني إن لا أفعل أخاف أن تصيبني قارعة، وأؤاخذ بخطيئتك! فدعا النبي ﷺ الجلاس، فقال: "يا جلاس، أقلت كذا وكذا؟ فحلف ما قال، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية[2].

ومع أن سبب نزول الآية هو (الجلاس بن سويد) لكن النظم الكريم عبر بصيغة الجمع (يحلفون – قالوا – كفروا ٠٠إلخ) ، حيث أسند هذه الأفعال إلى سائر المنافقين ؛ وذلك لأن هؤلاء المنافقين كانوا راضين بمقالته ، مستبشرين بها ، فلقد جاءت معبرة عما تنطوى عليه سرائرهم ، وتخفيه ضمائرهم ، فهذا الإسناد من قبيل المجاز العقلى ، حيث أسند الفعل إلى الكل وهو فى الحقيقة مسند إلى البعض[3].

وقد أفرد الضمير العائد إلى الله ورسوله فى قوله: (وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ) ، والسر وراء ذلك هو بيان أن إغناء الرسولﷺ للمنافقين هو عين إغناء الله – عز وجل – لهم ، فالإغناء فى الحقيقة واحد ؛ لأن الله – عز وجل – هو صاحب هذا الإغناء ، وهو الذى

---

(١) سورة ٠التوبة ٠ الآية : ٧٤

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن ٠للإمام الطبري ٠تحقيق: أحمد محمد شاكر ٣٦١/١٤ الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ٠الناشر: مؤسسة الرسالة٠

(٣) ينظر : علم المعانى ٠ د / بســـــيونى عبد الفتاح فيود ٠ صـ ٧٥ ط : الثالثة ١٤٣٤هـ–٢٠١٣م مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة٠

قضاه وقدره ، أما الرسول – ﷺ– فهو السبب المباشر فى هذا الإغناء ؛ لأنه كان كان ببركة دعوته ، ويمن رسالته[١] .

وقد قصد النظم الكريم هذا المعنى ؛ لكى يظهر حماقة المنافقين ، وسخافة عقولهم ، وأنهم على الحقيقة ما ينقمون – أى يعيبون ويكرهون[٢] – إلا فضل الله – عز وجل – عليهم ، حيث أغناهم بعد فقر، ووسع عليهم بعد ضيق ، كما أن فيه – أيضا – تهديدا ووعيدا لهم ؛ لأنهم إذا جحدوا نعمة الله – تعالى – عليهم ، فإنما يجحدون نعمة من بيده القدرة على كل شىء ، وعندئذ فإنهم لايأمنون بطشه بهم ، وعقابه لهم.

كما أكد النظم الكريم على سخافة عقول هؤلاء المنافقين بأسلوب المدح بما يشبه الذم – وهو أسلوب تهكمى – حيث أنه جعل نقمتهم على إغناء الله ورسوله لهم ، مع أن الأصل أن تكون النقمة لما يعاب ويذم ، وهذا من شأنه أن يبين مدى سخافة هذه العقول وانحطاطها ، ومدى الكيد الذى كانوا يكيدونه لرسول الله – ﷺ– حتى أوصلهم هذا الكيد إلى أن يعيبوا فضل الله ورسوله عليهم – حقدا وحسدا– بدل أن يقروا بهذا الفضل، ويعترفوا به[٣] .

ومن الآيات – أيضا – التى أُفرد فيها الضمير العائد إلى الله ورسوله قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ،للزجاج،تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي ٤٦٢/٢ ط: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م الناشر: عالم الكتب – بيروت.

(٢) ينظر : روح البيان٤٦٨/٣

(٣) ينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون،للسمين الحلبى،تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط ٨٧/٦ ط : بدون ،الناشر: دار القلم، دمشق.

تَسْمَعُونَ ﴾[١] ، حيث أفرد الضمير ؛ لبيان أن التولى عن رسول الله ، والإعراض عن طاعته هو فى الحقيقة تولٍ عن الله – عز وجل – ، والاستجابة لأوامره[٢] ، وهذا هو السبب وراء عدم تكرار الفعل (أَطِيعُواْ)[٣] ، فلم يقل القرآن الكريم (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ؛ لبيان أن طاعة الرسول – ﷺ– هى عين طاعة الله – عزوجل – ، فهذه الحقيقة من شأنها أن تدفع المؤمنين دفعا إلى طاعة رسول الله ، والاستجابة لأوامره ، كما أن فيها مزيد زجر وتخويف لهؤلاء المؤمنين أن يتولوا عن رسول الله؛ لأنهم فى الحقيقة إنما يتولون عن الله ؛ لذا جاءت الجملة الحالية (وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ) ؛ لتأكيد هذا الزجر ٠

يقول الإمام أبو السعود :" {وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} جملةٌ حالية واردة ؛ لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقاً ، كما في قوله تعالى: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) [٤] لا لتقييد النهي عنه بحال السماع ، كما في قوله تعالى : (لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُمْ سكارى) [٥] أي لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم وإذعان"[٦] ٠

(١) سورة ٠ الأنفال ٠ الآية : ٢٠
(٢) ينظر :الجامع لأحكام القرآن ٠للإمام القرطبي ٠تحقيق: أحمد البردوني ٣٨٧/٧ ط : الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة
(٣) ينظر : لطائف الإشارات ٠للإمام القشيري ٠تحقيق / إبراهيم البسيوني٦١٣/١ ط: الثالثة الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر
(٤) سورة ٠ البقرة ٠ الآية : ٢٢
(٥) سورة ٠ النساء ٠ الآية : ٤٣
(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٤/٤–١٥

ومن الآيات التى ورد فيها – أيضا – إفراد الضمير العائد إلى الله ورسوله قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ٠٠٠الآية ﴾[(١)]

والسبب وراء إفراد الضمير هو بيان أن دعوة الرسول المؤمنين إلى أحكام الإسلام ، التى فيها حياة قلوبهم وأرواحهم هى نفسها دعوة الله – عز وجل – ، فالدعوة واحدة ؛ لأن الله – عز وجل – هو الآمر بها ، والرسول –ﷺ– هو المنفذ لهذا الأمر، وهو المباشر له ؛ لذلك من يستجيب لدعوة الرسول(ﷺ) فإنما على الحقيقة يستجيب لدعوة الله عزوجل ٠

يقول الإمام الخازن :" وإنما وحد الضمير في قوله تعالى: إذا دعاكم ؛ لأن استجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم– استجابة لله – تعالى– وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد"[(٢)]٠

وقد جعل القرآن الكريم الاستجابة للرسول – ﷺ– هى عين الاستجابة لله – عز وجل – ؛ لكى تكون تحفيزا للمؤمنين على المسارعة إلى الاستجابة لرسول الله والانصياع لأوامره ، وهذا هو السبب – أيضا – وراء التعبير بالفعل (استجيبوا) بدل الفعل (أجيبوا) ؛ لأن الألف والسين والتاء تكون للطلب ، وهذه إشارة إلى أنه لا يجب على المؤمنين فقط أن يستجيبوا لأوامر رسول الله – ﷺ– ، بل عليهم أن يطلبوا هذه الأوامـــر ، ويفتشوا عنها ، ثم ينفذوها ، وينصـــــاعوا لها[(٣)] ، كما أن التعـــبير

---

(١) سورة ٠ الأنفال ٠ الآية : ٢٤

(٢) لبـــاب التأويل في معاني التنزيل٠للإمام الخـازن ٠تصحيح: محمد علي شاهين ٢/٣٠٣الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت٠

(٣) ينظر : الفروق اللغويـــة ٠ لأبى هلال العسـكرى٠تحقيق: محمد إبراهيم سليم صـ ٢٢٣ ط : بدون ٠ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر٠

بالفعل (استجيبوا) أفاد المبالغة فى الاستجابة لرسول الله – ﷺ– ؛ لأنه من المعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى٠

يقول الشيخ / رشيد رضا :" الاستجابة هي الإجابة بعناية واستعداد، فتكون زيادة السين والتاء للمبالغة، وهو يقرب مما قالوه في معانيهما من التكلف والتحري أو هو بعينه، ٠٠٠ فقوله: يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم معناه: إذا علمتم ما فرضنا عليكم من الطاعة، وشأن سماع التفقه من الهداية، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن الله – تعالى– لما يحييكم، فأجيبوا الدعوة بعناية وهمة، وعزيمة وقوة، فهو كقوله تعالى: خذوا ما آتيناكم بقوة[1]"[2] .

وللسبب نفسه – وهو تحفيز المؤمنين على الاستجابة الكاملة لأوامر رسول الله – ﷺ– كرر النظم القرآني حرف الجر اللام فى قوله تعالى: (وَلِلرَّسُولِ) ؛ للتأكيد على هذه الاستجابة ، والاستمساك البالغ بها ، كما أن تكرار حرف الجر أفاد – أيضا – الاستقلالية لرسول الله – ﷺ– فى بعض الأوامر بعيدا عن الوحى ، وذلك عن طريق اجتهاده فى هذه الأمور ، وهذه الأوامر – أيضا– مطالب من المؤمنين أن يستجيبوا لها ، ويجدوا فى تنفيذها ، وعلى هذا فالمؤمنون مأمورون أن يستجيبوا للنبى – ﷺ– فيما يأمرهم به تبليغا عن الله – عز وجل – وفيما يأمرهم به اجتهادا عن طريق عقله وفكره ، وهذا المعنى لم يتأت إلا من تكرار حرف الجر اللام[3] .

ثم كان التعبير القرآني بالاستعارة فى قوله: (لِمَا يُحْيِيكُمْ) دافعا آخر من الدوافع التى تحفز المؤمنين على الاستجابة المثلى لرسول الله – ﷺ–

(١) سورة ٠ الأعراف٠ الآية : ١٧١
(٢) تفسير المنار ٥٢٥/٩
(٣) ينظر : التحرير والتنوير ٣١٢/٩

حيث استعار الإحياء لكل ما يأمرهم به ، ويدعوهم إليه ؛ لأن به حياة قلوبهم وأرواحهم ، فهو كالغيث المنهمر الذى يحيى موات الأرض ، وكذلك أوامر رسول الله – ﷺ– تحيى موات قلوبهم ، وتنير ظلمات أرواحهم [١] .

ومن الآيات التى ورد فيها إفراد الضمير العائد إلى الله ورسوله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [٢] .

فالضمير المستتر فى قوله: (لِيَحۡكُمَ) مفرد مع أنه تقدمه مذكوران هما: الله ورسوله ، والأصل أن يكون بضمير التثنية (ليحكما) .

والسبب وراء إفراد هذا الضمير ما ذهب إليه الزمخشرى [٣] من أن المقصود منه بيان أن حكم رسول الله – ﷺ– هو عين حكم الله–عز وجل– ، فالحكم إذا واحد ، والرسول عندما يحكم فإنما يحكم بأحكام الله لا بأحكام مستقلة عن أحكامه ؛ لذلك كان إفراد الضمير مؤذنا بهذه الحقيقة ، ومبينا لها ، وقد تبعه فى ذلك أبو حيان فى البحر المحيط [٤] .

كما أن سياق الآيات يؤكد ما ذهب إليه الزمخشرى ، حيث إن السياق يتحدث عن أحوال المنافقين مع رسول الله – ﷺ– ، وكيف أنهم يرفضون حكمه ، ويعترضون عليه إذا كان الحق عليهم ، فإذا كان الحق لهم أتوا إليه مذعنين ، وهذا يدل على سخافة عقولهم ، وضلالة قلوبهم ، فهذا السياق قصد به توبيخ هؤلاء المنافقين ، وبيان أنهم على ضلال كبير ، وخطر عظيم إذا لم ينصاعوا لحكم رسول الله – ﷺ– ؛ لأنه فى الحقيقة

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٣٨٩/٧

(٢) سورة ٠النور٠ الآية : ٤٨

(٣) ينظر : الكشـــاف عن حقائق غوامض التنزيل٠ للزمخشري ٢٤٨/٣ ط : الثالثة ١٤٠٧ هـ الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت٠

(٤) ينظر : البحر المحيط في التفسير ٠لأبى حيان الأندلسي ٠تحقيق: صدقي محمد جميل ٦١/٨الطبعة: ١٤٢٠ هـ٠ الناشر: دار الفكر – بيروت

حكم الله – عز وجل – ، فإفراد الضمير إذا هو المناسب بلاغيا ؛ لبيان مدى ضلال هؤلاء المنافقين ، لأنهم ما يعترضون فى الحقيقة إلا على حكم الله – عز وجل – ، فأى ضلال أشد من هذا الضلال ، وأى حمق أعظم من هذا الحمق؟ ، وهذا المعنى لا يتأتى إلا بجعل حكم رسول الله هو عين حكم الله ، عن طريق إفراد الضمير فى قوله : (لِيَحْكُمَ)٠

وورد– أيضا– إفراد الضمير العائد إلى الله ورسوله فى قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[1]٠

اختلفت أنظار العلماء فى بيان مرجع الضمير فى قوله : (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ) ، فذهب بعضهم إلى أن الضمير فى قوله: (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) عائد إلى رسول الله – ﷺ– بقرينة قوله: (وَتُعَزِّرُوهُ) ؛ لأن معناها تنصروه[2] ، والنصرة لا تكون إلا لبشر ؛ لأن الله – عز وجل – مستغن عمن ينصره ، أما الضمير فى قوله: (وَتُسَبِّحُوهُ) فهو عائد إلى الله عز وجل[3]٠

وذهب بعض آخر إلى أن الضمائر كلها لله – عز وجل – بقرينة قوله: (وَتُسَبِّحُوهُ)، وقالوا: لامانع أن يكون الضمير فى قوله: (وَتُعَزِّرُوهُ) عائد إلى الله– عز وجل – ؛ لأن النصرة فى حق الله جائزة ، ويكون المقصود بها نصرة دينه وشرعه ، وقد ورد ما يؤكد ذلك فى القــرآن

---

(١) سورة ٠الفتح٠ الآية : ٩

(٢) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٠ للإمام الواحدي٠تحقيق : صفوان عدنان صـ ١٠٠٩ط: الأولى، ١٤١٥هـ دار القلم ، الدار الشامية – دمشق، بيروت٠

(٣) النكت والعـيون ٠ للإمام أبى الحســـن الماوردي ٠تحقيق: السيد عبدالمقصود ٣١٣/٥ ط : بدون ٠الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان٠

الكريم حيث قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[١][٢].

والرأى الأقرب للصواب هو الرأى الثانى ، وهو ما ذهب إليه الإمام الزمخشرى[٣] وعلل اختياره بعلة بلاغية ، وهى أن الرأى الأول يترتب عليه تفريق الضمائر بلا مسوغ لتفريقها ، وهذا يناقض بلاغة القرآن الكريم ، وحسن نظمه وسبكه ، وتبعه فى ذلك الإمام الألوسى[٤].

هذا بالإضافة إلى أن رجوع الضمائر كلها لله – عز وجل – لايمنع أن يكون الرسول – ﷺ– مقصودا – أيضا – بالتعزير والتوقير ؛ لأن إفراد الضمير فى قوله: (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) يدل على أن التعزير والتوقير مقصود بهما الله ورسوله.

والسر وراء إفراد هذا الضمير هو جعل نصرة رسول الله – ﷺ– وتوقيره هى عين نصرة الله – عز وجل – وتوقيره[٥] ، فالرسول مبلغ عن ربه ، ومبعوث برسالته ؛ لذلك كانت نصرته وتوقيره هى على الحقيقة نصرة لله – عز وجل – وتوقيرا له ، وهذا يدل على قدر المصطفى – ﷺ– ، وعظيم مكانته عند ربه ، والذى يدل على أن هذا المعنى هو المقصود قوله تعالى عقب الآية السابقة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ... الآية ﴾[٦] ،

---

(١) سورة .محمد. الآية : ٧

(٢) ينظر : تفسير الكشاف ٣٣٥/٤

(٣) ينظر : المصدر نفسه.الصفحة نفسها.

(٤) ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى.للألوسي تحقيق: علي عبدالباري عطية ٢٥١/١٣ ط: الأولى ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية بيروت.

(٥) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. للإمام البقاعى ٢٩٤/١٨ ط: الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، والتحرير والتنوير ١٥٦/٢٦

(٦) سورة .الفتح. الآية : ١٠

فمبايعة رسول الله – ﷺ– هى فى الحقيقة مبايعة لله – عز وجل – إذا سياق الآيات كلها مقصود به إبراز هذه الحقيقة وإظهارها٠

وهذا المعنى الجليل من شأنه أن يدفع الناس دفعا إلى الإيمان برسول – ﷺ– ، وبدعوته مع الاجتهاد الكامل فى نصرته ، ونصرة شريعته ؛ لأن من يفعل ذلك هو فى الحقيقة ينصر الله – عز وجل – وهل هناك عمل أعظم من الإيمان بالله عز وجل – مع بذل الغالى والنفيس فى سبيل نصرته ، ونصرة دينه؟٠

ولأجل إظهار أهمية هذه القضية فإن النظم الكريم عبر بضمير الخطاب فى قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ ، مع أن الأصل أن يكون بضمير الغيبة ؛ لأن الله – تعالى– قال قبل هذه الآية: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[1] ، فكان الأصل أن يقول ليؤمنوا – أى الناس – بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ، والذى يؤكد ذلك قراءة أبى جعفر وعمرو بن العلاء لهذه الأفعال بالياء ، وهما من القراءات الصحيحة المشهورة[2]٠

وسر التعبير بضمير الخطاب هنا هو بيان أهمية الإيمان بالله ورسوله مع نصرته وتوقيره ، لأن مواجهة المخاطبين بهذه القضية ، ومجابهتهم بها مباشرة بلا واسطة يدل على أهميتها وبالغ تأثيرها فى حياة الإنسان، ولا شك أن التعبير بضمير الغيبة لا يظهر معه مدى هذا الاهتمام، كما يظهره التعبير بضمير الخطاب٠

ومع أن التعزير والتوقير لله ورسوله من دلائل الإيمان ومقتضياته ، لكن النظم الكريم أفردهما بالذكر – فهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام–؛

(١) سورة ٠الفتح٠ الآية : ٨
(٢) ينظر : تفسير الطبرى (جامع البيان فى تأويل القرآن) ٢٠٧/٢٢

لكى يبين فضلهما ، وأهميتهما فى إظهار حقيقة إيمان المؤمن ، ومدى أثرهما فى التأكيد على صحة هذا الإيمان .

كل الآيات السابقة كان الضمير فيها مفردا وعائدا إلى الله ورسوله ، لكن هناك آية أُفرد فيها الضمير العائد إلى رسول الله وصاحبه أبى بكر ، وهى قوله – تعالى – ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ... الآية ﴾[1] .

عندما نتأمل هذه الآية نجد أنه قد تقدم ذكر النبى – ﷺ– وذكر صاحبه أبى بكر الصديق – ﷺ– وذلك فى قوله (إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ) ، ولكن الضمير فى قوله (عَلَيْهِ) رجع إلى أحدهما دون الآخر ، وكان الأصل هو رجوع الضمير إليهما فيكون ضميرا مثنى (عليهما) .

وقبل أن أبين السر البلاغى وراء رجوع الضمير إلى أحدهما دون الآخر لابد من معرفة إلى من يرجع هذا الضمير ، أإلى الرسول – ﷺ– أم إلى أبى بكر الصديق – ﷺ– لأن السر البلاغى يترتب على معرفة مرجع هذا الضمير .

(١) سورة : التوبة . الآية : ٤٠

اختلف العلماء فى مرجع هذا الضمير على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه يعود إلى النبى – صلى الله عليه وسلم– واستدلوا بقوله (وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) حيث قالوا: إن التأييد بالجنود قطعا لا يكون إلا للنبى – ﷺ – فهى قرينة دالة على أن السكينة التى أنزلها الله– عز وجل – إنما هى له بدليل عطف التأييد بالجنود عليها٠[1].

الثانى: الضمير يعود إلى أبى بكر الصديق – ﷺ – ؛ لأنه هو الذى كان حزينا وخائفا أن يدرك المشركون رسول الله – ﷺ – وهو فى الغار ، أما النبى – ﷺ – فلم يخف ، ولم يحزن ؛ لأنه واثق بنصرة ربه – عز وجل – لذلك قال له النبى – ﷺ – (لَا تَحْزَنْ) ثم أنزل الله – عز وجل – السكينة عليه ؛ لكى يطمئن قلبه ، ويذهب ما فيه من خوف وحزن ، ولكن ضعف بعض العلماء هذا القول ، لأنه سيترتب عليه تفكيك الضمائر المعطوفة ، فيكون الضمير فى قوله: (عَلَيْهِ) عائدا إلى أبى بكر ، والضمير فى قوله: (وَأَيَّدَهُۥ) راجعا إلى النبى – ﷺ– وهذا مخالف لبلاغة القرآن الكريم ، ودقة نظمه فى البيان والتعبير [2]٠

الثالث: أن الضمير فى قوله (عَلَيْهِ) مقصود به النبى – ﷺ– وأبا بكر– رضى الله عنه – معا ، ولكنه اكتفى برجوع الضمير إلى النبى – ﷺ – أصالة ، أما أبو بكر فهو مقصود بالتبعية ، واستدل أصحاب هذا القول

---

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ٠للزجاج ٤٤٩/٢ ، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي تحقيق: عبد الرزاق المهدي٢٦١/٢ ط: الأولى ١٤٢٢ هـ الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت

(٢) ينظر : إعراب القرآن ٠لأبى جعفر النحاس٠تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم ١١٩/٢ ط: الأولى، ١٤٢١هـ ٠دار الكتب العلمية، بيروت ٠

بأنه وجد فى مصحف حفصة – رضى الله عنها – قراءة لهذه الآية بتثنية الضمير (فأنزل الله سكينته عليهما ، وأيدهما بجنود لم تروها)٠ [١]

وبالنظر إلى هذه الأقوال الثلاثة نجد أن أقربها للصواب هو القول الثالث ؛ وذلك لوجود قراءة تؤيد هذا القول ، هذا بالإضافة إلى أن النبىﷺ وصاحبه أبا بكر – ﷺ– كانا مع بعضهما فى الغار ، ولم يفترقا طوال هذه الرحلة المباركة ، وهذا يستدعى أن كل ما يتفضل الله به من سكينة وثبات، وتأييد ونصرة إنما أن يكون لهما ؛ لذلك ليس من المعقول أن يتفضل الله – عز وجل– على رسوله – ﷺ – بالسكينة والتأييد ، ويمنعهما من أبى أبكر– ﷺ– وهو صاحبه ورفيقه٠

ولا يعترض معترض بأن الرسول – ﷺ – كان فى هذه الرحلة رابط الجأش ، ثابت الجنان ، واثقا من نصرة ربه ، وتأييده له ، فكيف تتنزل عليه السكينة إذا ؟٠

والرد على هذا الاعتراض أنه لايلزم أن تتنزل السكينة على قلب خائف وجل ، بل قد تتنزل على قلب ثابت ساكن ، لزيادة ثباته وسكينته ، ولمنع أسباب الخوف والانهزام من التسلل إلى قلبه ، والتغلغل فى نفسه ، ومما يدل على ذلك نزول السكينة على قلب النبى – ﷺ – يوم حنين مع أنه كان ثابتا فى ميدان المعركة ، بينما أصحابه قد ولوا على أدبارهم منهزمين فى بداية هذه المعركة قبل أن يثبت الله قلوبهم ، فيعودوا ليبدلوا هزيمتهم

---

(١) ينظر : تفسير القرآن ٠للإمام السمعانى ٠ تحقيق: ياسر إبراهيم ، وغنيم عباس غنيم ٣١١/٢ – ٣١٢ ط: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م٠النـــاشر: دار الوطن، الرياض السعودية ، وتفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) تحقـــيق: عبد الســـلام عبد الشافي محمد ٣٦/٣ ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ٠الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت٠

نصرا[1] ، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الضمير فى قوله: (عَلَيْهِ) ، (وَأَيَّدَهُ) قد اكتفى فيه برجوعه إلى النبى – ﷺ– دون أبى بكر – ﷺ– ، فما الأسرار البلاغية إذا وراء ذلك ؟٠

بالتأمل نجد أن هذه الأسرار هى:

الأول: تعظيم مقام النبى – ﷺ– ، وبيان شرفه ، وعلو قدره ، حيث رجع الضمير إليه وحده دون صاحبه ، فقدر النبى – ﷺ– أعظم ، وأشرف من أن يشرك معه أحد فى ضمير يرجع إليهما ، بل لابد أن يكون النبى – ﷺ– متفردا ، فليس هناك أحد من أصحابه يستطيع أن يطاول مقامه ، أو يقارب مكانته ، حتى ولو كان أفضل أصحابه ، وأقربهم الى قلبه أبا بكر ، إن إفراد الضمير معناه إفراد المكانة ، والتفرد فى المنزلة وهذا هو المتناسب مع مقام المصطفى – ﷺ– ، وعظيم قدره ومكانته٠

الثانى: سياق الآيات كلها يتعلق بالنبى – ﷺ– ، وبيان قدره ، وإظهار عناية الله – عز وجل – به ، ونصره له ، أما ذكر أبى بكر – ﷺ– فى هذا السياق فقد أتى عرضا ، وفى موقف محدد ، وهو موقفه عندما كان مع النبى – ﷺ– فى الغار ؛ ، لذلك كان من الأنسب والأليق بهذا

(١) ينظر : روح البيان ٣/٤٣٥
(٢) سورة : التوبة ٠ الآية : ٢٥-٢٦

السياق أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى المصطفى– ﷺ – ؛ لأنه هو الذى سيقت من أجله أصالة هذه الآيات.

الثالث: الرسول هو إمام هذه الأمة وقائدها ، أما أبو بكر فهو تابع من أتباعه ؛ لذلك رجع إليه الضمير دون أبى بكر ، والقرآن الكريم كثيرا ما يوجه حديثه إلى القادة والزعماء دون الأتباع ؛ لأن هؤلاء الأتباع فى الحقيقة منفذون لإرادة قادتهم ، ومتبعون لأوامرهم ؛ لذلك استغنى بذكرهم عن ذكر الأتباع ، وذلك مثل قوله – تعالى – ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[١] ، حيث وجه الأمر إلى المترفين وهم: المتنعمون من قادة القوم وعليتهم ، والمقصود بهذا الأمر هم القادة والأتباع على السواء[٢] ، وهذا أسلوب جرى عليه القرآن فى كثير من آياته.

الرابع: تشريف أبى بكر الصديق – ﷺ– ، وبيان عظم قدره ومنزلته ، حيث جعله القرآن الكريم كأنه هو والنبى – ﷺ– شئ واحد ، فلم يعد بينهما فواصل وحدود ، وكأن أبا بكر امتزج بالنبى– ﷺ– حتى صار جزءا منه ، وقطعة من روحه وجسده ، فصارا يعاملان معاملة المفرد[٣] ، وليس معنى ذلك أنهما تساويا فى الفضل والمكانة ، فذلك مالا يكون أبدا – وقد بيناه فى المعنى الأول – وإنما المقصود أن أبا بكر صار جزءا من النبىﷺ ، ومن المعلوم أن الكل أشرف من الجزء ، لذلك كان إفراد الضمير مؤذنا بهذا الفضل والشرف لأبى بكر– ﷺ– ، وهذا من بلاغة القرآن العجيبة ،

---

(١) سورة : الإسراء . الآية : ١٦

(٢) ينظر : فتح القدير . للإمام الشوكاني ٢٥٥/٣ ط: الأولى – ١٤١٤ هـ الناشر: دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت.

(٣) ينظر : روح المعاني ٢٩١/٥

ودقة نظمه المعجز ، والذى جعل إفراد الضمير دالا على شرف النبى– ﷺ– وصاحبه أبى بكر فى آن واحد ، مع أن الناظر لأول وهلة يظن أنهما متعارضان ، ولكن عند تدقيق النظر نجد أنهما متلائمان تمام التلاؤم ، ومنسجمان تمام الانسجام ٠

ولم يقتصر النظم القرآني فى إظهار عظمة النبى – ﷺ– وشرفه على إرجاع الضمير إليه دون أبى بكر– ﷺ– ، بل كان هناك – أيضا – من الدقائق البلاغية ، والنكات التعبيرية ما أظهر هذا التعظيم ، وأبرز هذا التشريف ، ومن ذلك وضع المظهر موضع المضمر فى قوله (فَأَنزَلَ ٱللَّهُ)، حيث وضع لفظ الجلالة (ٱللَّهُ) بدل الضمير العائد إليه ؛ ليكون أقوى فى تأكيد مدى نصرة الله – عز وجل – له بإنزال السكينة عليه ، وتشريفه بهذه النفحة الربانية التى هى إحدى عوامل التثبيت والنصر ، فإن لفظ الجلالة إذا ما قرع الآذان بفخامته ، وطرق باب القلب بمهابته تأكد عندها عظم هذه السكينة المنزلة على النبى– ﷺ– ، وهذا معنى لايؤديه الضمير، وإنما يؤديه لفظ الجلالة بكل مافيه من معانى العظمة والجلال٠

كما أن إضافة السكينة لله – عز وجل – (سَكِينَتَهُۥ) أظهرت شرف هذه السكينة ، فهى سكينة منسوبة لله – عز وجل – وكأنها سكينة خاصة ، وليست كأى سكينة ؛ لذلك كان الأحق بها هو رسول الله – ﷺ–، فهى سكينة شريفة عظيمة تليق بالشريف العظيم ﷺ ٠

ونلحظ أن القرآن الكريم دائما عندما يتحدث عن إنزال السكينة على رسول الله – ﷺ– يجعل هذه السكينة مضافة إلى الله – عز وجل – ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ

جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١] ، وقوله: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]، أما عندما تتعلق السكينة بغير رسول الله- ﷺ- فإنها تأتى بغير إضافة لله – عز وجل – ، وذلك مثل قوله تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[٣] ، وقوله: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[٤] فهذا التفريق فى التعبير القرآني مقصود به إظهار شرف النبى – ﷺ- ، وعظيم مكانته ، وأنه لايدانيه أحد فى قربه من ربه ، وفى إنعامه عليه باللطائف الربانية ، والنفحات الإلهية التى تتنزل عليه فتثبت قلبه ، وتقوى عزمه ، وتمهد له طرائق النصر والتمكين .

ومن المعلوم أن السكينة محلها القلب ، فكان الأصل فى التعبير أن يقول القرآن الكريم: (فأنزل الله سكينته على قلبه) ، ولكنه خالف هذا الأصل فقال: (فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ) ؛ ليبين أن هذه السكينة سكينة سابغة تامة ، فهى لم تنزل على قلبه – ﷺ- فقط ، وإنما نزلت على سائر بدنه ، حتى أحاطت به من كل جانب ، وغشيته من كل ناحية ، وهذا يدل على مدى عناية الله – عز وجل –به ، ونصرته له فى هذا الموقف الرهيب .

(١) سورة : التوبة . الآية : ٢٦
(٢) سورة : الفتح . الآية : ٢٦
(٣) سورة : الفتح . الآية : ٤
(٤) سورة : الفتح . الآية : ١٨

المبحث الثاني

الآيات المتعلقة بقصص الأنبياء

وأول الآيات الواردة فى هذا المبحث قوله تعالى : ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]٠

فى هذه الآية يأمر الله- عز وجل - نبييه الكريمين موسى وهارون – عليهما السلام – أن يتخذا لبنى إسرائيل بيوتا ، يسكنون فيها ، ويقيمون فيها صلواتهم بدلا من أماكن العبادة التى منعهم من ارتيادها فرعون وجنده ظلما وعدوانا[2]٠

وبالتأمل فى هذه الآية نجد أنه قد تقدم ذكر موسى وهارون – عليهما السلام – ولكن الضمير فى قوله: (وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) عاد إلى موسى – عليه السلام وحده – مع أن التبشير للمؤمنين واقع منهما على السواء ؛ لأنهما نبيا بنى إسرائيل٠

ومن الملاحظ – أيضا – فى هذه الآية أن الخطاب كان لموسى وهارون بصيغة التثنية ، ثم كان الخطاب بصيغة الجمع لعموم بنى إسرائيل (وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ) ، ثم كان الخطاب بصيغة الإفراد لموسى – عليه السلام – وحده٠

يوضح الإمام الزمخشرى السبب وراء تنوع الخطاب فى هذه الآية ، فيقول :" كيف نوع الخطاب، فثنى أولا، ثم جمع، ثم وحد آخراً. قلت:

(١) سورة : يونس ٠ الآية : ٨٧
(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم ٠لابن كثير٠تحقيق : محمد حسين شمس الدين ٢٥٢/٤الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ٠الناشر: دار الكتب العلمية، – بيروت٠

خوطب موسى وهارون – عليهما السلام– أن يتبوآ لقومهما بيوتا، ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض، تعظيما لها وللمبشر بها" [(١)].

إذا السبب وراء إفراد موسى – عليه السلام – بالبشارة فى هذا السياق؛ لتعظيمه ، ولبيان شرفه ، ورفعة مكانته عند ربه عز وجل.

وزاد الإمام الرازى سببا آخر ، وهو أن موسى – عليه السلام – هو قائد بنى إسرائيل وهو نبيهم الأول ، أما هارون – عليه السلام – فهو تابع لموسى ، فكان الإفراد دالا على هذه القيادة لموسى ، ومبرزا لها [(٢)].

ولكن بالتأمل نجد أن هذا الرأى ضعيف ؛ لأن الأمر لو كان كذلك لوُجه الخطاب من أول الآية إلى موسى دون هارون ، ولكن الخطاب وجه إليهما أولا ، ثم أفرد موسى بالخطاب آخرا ، وهذا يدل على أن ما ذهب إليه الزمخشرى أقرب للصواب. فمقام التبشير بالنصر مقام عظيم ؛ لذلك يناسبه أن يُخص بالقيام به العظيم ، وهو موسى عليه السلام على سبيل الأصالة ، وأن يكون قيام هارون بالبشارة على سبيل التبع.

ولما كان مقام التبشير بالنصر مقاما عظيما ، ومن يقوم به العظيم ناسب ذلك أن يعظم القرآن الكريم من يبشَّرون بهذه البشارة ، وهم قوم بنى إسرائيل ؛ لذلك عبر عنهم بصفة الإيمان فقال: (وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

(١) ينظر : الكشاف ٣٦٤/٢ ، وتفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) تحقيق/ محمد عبد الرحمن المرعشلي١٢٢/٣ ط: الأولى ١٤١٨هـ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) ينظر : التفسير الكبير ٢٩١/١٧

والأصل: وبشرهم أو وبشر قومك ؛ لبيان أنهم ما استحقوا هذه البشارة إلا بسبب إيمانهم ، وصبرهم على ما لاقوه من فرعون من قتل وتشريد[١] .

ومن الآيات الواردة فى هذا المبحث قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ٠٠٠ الآية ﴾[٢]، حيث تقدم ذكر موسى – عليه السلام – وذكر التابوت فى قوله: (ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ)، لكن الضمير فى قولـه: (فَٱقْذِفِيهِ) ضمير مفرد؛ لذلك اختلف العلماء فى مرجع هذا الضمير على قولين[٣] :

الأول: أنه يعود إلى التابوت ؛ لأنه أقرب مذكور٠

الثانى: أنه يعود إلى موسى عليه السلام٠

والقول الثانى هو الراجح ، وهو ما ذهب إليه الزمخشرى حيث قال :" والضمائر كلها راجعة إلى موسى. ورجوع بعضها إليه ، وبعضها إلى التابوت فيه هجنة، لما يؤدى إليه من تنافر النظم. فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر، فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن. والقانون الذي وقع عليه التحدّى، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر"[٤].

وقد رجح – أيضا – هذا الرأى أبو حيان فى البحر المحيط ، ورد على من أيد القول الأول محتجا بقاعدة :رجوع الضمير إلى أقرب مذكور بقوله:"

---

(١) ينظر : روح المعانى ٠ للألوسى ١٦١/٦

(٢) سورة ٠ طه٠ الآية : ٣٨-٣٩

(٣) ينظر : إعراب القرآن٠ للنحاس ٢٧/٣ ، والمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية٤٤/٤

(٤) ينظر : الكشاف ٦٣/٣

ولقائل أن يقول إن الضمير إذا كان صالحا لأن يعود على الأقرب وعلى الأبعد ، كان عوده على الأقرب راجحا، وقد نص النحويون على هذا ، فعوده على التابوت في قوله: فاقذفيه في اليم فليلقه اليم راجح، والجواب أنه إذا كان أحدهما هو المحدث عنه والآخر فضلة كان عوده على المحدث عنه أرجح، ولا يلتفت إلى القرب"[(١)].

والسر وراء عود الضمير إلى موسى عليه السلام هو ما ألمح إليه الزمخشرى آنفا ، من أن سياق الآيات كلها واردة فى قصته مع فرعون ، كما أن الخطاب كله موجه إليه فى هذا السياق ، لذلك كان من الأنسب بلاغيا أن يرجع الضمير إليه ، وهذا يؤدى إلى الإنسجام التام ، والترابط الكامل بين أجزاء هذا السياق ، وهذا لا شك أنه أبلغ من تهلهل النظم ، وتفكك السياق إذا عاد الضمير إلى التابوت مع أن الضمائر كلها لموسى عليه السلام.

ومن أسرار عود الضمير إلى موسى – عليه السلام – أيضا ، هو المبالغة فى بيان عظم الخطب الذى حل بموسى – عليه السلام – وإبراز هذه المصيبة التى ألمت به وبأمه ، فالنظم الكريم صور المقذوف وكأنه هو موسى لا التابوت ؛ لكى يتخيل الذهن ، ويتصور العقل وكأن أم موسى ممسكة به بلحمه ودمه ، وقد همت بإلقائه فى خضم هذا اليم ، مودعة إياه بزفرات قلبها ، وحرارة أنفاسها ، ودموع عينيها ، وهذا بخلاف تصوير أم موسى وهى ممسكة بتابوت قد احتوى موسى – عليه السلام – احتواء حفظ وصيانة ، وهى تلقيه فى هذا اليم ، لا شك أن الصورة الأولى أبلغ

(١) البحر المحيط ٧/٣٣٠-٣٣١

وأقوى فى تصوير فداحة هذه المصيبة ، التى وقعت على موسى وأمه حتى كاد قلبها أن يتصدع من عظمها، وكيانها أن يتزلزل من كبرها٠

ثم كان التعبير بالفعل (فَٱقْذِفِيهِ) بدلا من الفعل (ضعيه) على سبيل الاستعارة[١] ؛ لكى يتماشى مع التصوير البليغ لهذه المصيبة ، فهى لم تؤمر أن تضعه فى اليم بهدوء واطمئنان يتناسبان مع شفقتها على وليدها، بل أمرت أن تقذفه قذفا سريعا خشية أن تراها الأعين الراصدة٠ ألا ما أعظم هذه المصيبة التى ألجأتها أن تقذف وليدها ، وكأنها تقذف شيئا تافها لا قيمة له ، تريد مفارقته والخلاص منه!٠

ثم عبر النظم القرآني بفاء التعقيب (فَٱقْذِفِيهِ) ؛ لكى يحض أم موسى على الإسراع فى قذف وليدها فى اليم عقب قذفه فى التابوت ، فالأمر جد، والخطب عظيم ؛ لذلك لا يجوز التأنى والإبطاء ، بل يجب العجلة والإسراع، حتى يتحقق لابنها النجاة من فرعون ، والسلامة من كيده[٢]٠

ومن الآيات – أيضا – فى هذا المبحث قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[٣]٠

فى هذه الآية تقدم ذكر آدم – عليه السلام – وزوجه حواء ، ولكن الضمير فى قوله:(فَتَشْقَىٰٓ) عاد إلى آدم وحده ، والأصل أن يكون الفعل بضمير المثنى(فتشقيا) ؛ لأن الشقاء فى هذه الدنيا سيلحقهما معا، فليست حواء بمنجاة عن هذا الشقاء٠

وللعلماء فى بيان سبب إفراد هذا الضمير عدة أقوال هى :

---

(١) ينظ : نظم الدرر ٢٨٦/١٢

(٢) ينظر: تفسير الشعراوى ٩٢٦٧/١٥ ط : ١٩٩٧م ٠ دار أخبار اليوم – القاهرة٠

(٣) سورة ٠طه ٠ الآية : ١١٧

الأول: أن آدم – عليه السلام – هو المخاطب أصالة فى هذا السياق ، فسياق القصة من أولها إلى آخرها متعلق به ، وابتداء الخطاب كان له ، وإنما جاء ذكر حواء على سبيل التبعية ، وليس الأصالة ، لذلك كان الأنسب أن يظل الخطاب موجها له كما بدئت به هذه القصة[١]. لكن هذا الرأى ضعيف ؛ لأن حواء – أيضا– وجه لها الخطاب فى قوله: (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا) ، ولو كان المقصود أن لا يتوجه الخطاب إلا إلى آدم فقط ، لقال تعالى:(فلا يخرجنك) ، ولكن توجه إليهما الخطاب سويا ، ثم توجه إلى آدم وحده ، مما يدل على أن إفراد الضمير فى قوله:(فَتَشْقَىٰ) له سبب آخر.

الثانى: أن آدم – عليه السلام – هو القيم على أمر زوجه ، وهو القائد لها ، فشقاؤها من ضمن شقائه ، وسعادتها تبعا لسعادته ؛ لذلك اختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها. وهذا الرأى – أيضا – ضعف بما ضعف به سابقه ؛ لأنه لو كان كذلك لأفرد الضمير – أيضا – فى قوله: (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا) ؛ لأن حواء تابعة لآدم فى الإخراج من الجنة ، كتبعيتها له فى الشقاوة والسعادة[٢].

الثالث: أن إفراد الضمير فى قوله : (فَتَشْقَىٰ) ؛ لمراعاة الفاصلة[٣] ، وهذا الرأى غير مقبول بمفرده ، بمعنى أن المحققين من علماء البلاغة ذهبوا إلى أن القرآن الكريم اهتمامه الرئيس إنما هو بالمعانى ، ثم إذا كان هناك مراعاة للفاصلة فليست هذه المراعاة مقصودة لذاتها ، وإنما جاءت

(١) ينظر: معانى القرآن للفراء ١٩٣/٢، وجامع البيان فى تأويل القرآن ٣٨٥/١٨

(٢) ينظر : الكشاف ٩١/٣-٩٢

(٣) ينظر : التبيان في إعراب القرآن.أبو البقاء العكـــبري .تحقيق : علي محمد البجاوي٩٠٦/٢ط : بدون . الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه- القاهرة.

تبعا للمعنى الأساس المقصود من الآية[١] ؛ وعلى هذا فلا مانع من قبول هذا الرأى ، ولكن بشرط أن يكون تبعا للمعنى الأساس من وراء إفراد الضمير ، وهذا المعنى – وهو الراجح من أقوال العلماء – هو:

الرابع: أن الشقاء المراد فى هذه الآية هو الكد فى سبيل تحصيل الرزق ، والتعب فى سبيل تملك ضرورات الحياة ، التى لاقوام لحياة الفرد إلا بها مثل الملبس والمسكن وغيرهما ، والذى يدل على ذلك قوله – تعالى– عقب الآية السابقة:﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[٢] ، ففى هذه الآيات تذكير له بأنه يجد أسباب الحياة ميسرة له فى الجنة بلا تعب أو نصب ، وهذا بخلاف الدنيا فإنه سيجد من المشقة والتعب فى سبيل تحصيل هذه الأسباب[٣] ؛ لذلك أسند الفعل (تشقى) لآدم وحده – مع أن حواء تقاسمه هذا الشقاء – ؛ لأنه هو المنوط بتحصيل هذا الرزق ، والمسئول عن جلب ما به قوام حياته وحياة زوجه ، فالشقاء أنما يقع معظمه على كاهل آدم ، لا حواء فى تحصيل هذا الرزق ؛ لذلك حسن إفراد الضمير لإبراز هذ الحقيقة ، ولبيان أنها سنة الله – عز وجل – فى خلقه ، فالتعب فى تحصيل الرزق إنما يقع –غالبا– على كاهل الرجال لا النساء٠

هذا بالإضافة إلى أن إسناد الشقاء لآدم وحده ؛ فيه مبالغة فى التحذير له من الركون إلى غواية الشيطان ، والاستكانة لوسوسته ؛ لأنه هو لا غيره سيتحمل القسط الأكبر من الشقاء ، والتعب فى هذه الحياة٠

(١) ينظر : خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعانى٠د/ محمد محمد أبوموسى صـ ٣٩٥ ط: التاسعة ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م ٠ مكتبة وهبة – القاهرة٠

(٢) سورة ٠طه ٠ الآية : ١١٨– ١١٩

(٣) ينظر : تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ٤/٤٠–٤١

كما أن التعبير بالفعل المضارع (تشقى) ؛ لبيان تجدد هذا الشقاء ، فهو شقاء يتلوه شقاء ، ونصب يعقبه نصب ، وهذا يتطلب من آدم – عليه السلام – أن يكون على غاية من الوجل والإشفاق ؛ لئلا يكون فريسة لمكائد الشيطان وحبائله.

ولم يكتف النظم الكريم بما سبق لتحذير آدم من كيد الشيطان ووسوته، وإنما أسند إخراجهما من الجنة للشيطان مع أن المخرج لهما هو الله – عز وجل – ؛ ليكون أبلغ فى التحذير ، وآكد فى التخويف ، فهو من قبيل المجاز العقلى وعلاقته السببية ؛ لأن الشيطان هو السبب فى إخراجهما من الجنة بوسوسته وغوايته(١).

وآخر الآيات الورادة فى هذا المبحث قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾(٢) ، حيث تقدم ذكر فرعون وجنوده فى صدر الآية، ولكن فى نهايتها عاد الضمير إلى فرعون وحده (وَهُوَ مُلِيمٌ) ، مع أنهم مشتركون كلهم فى الملامة على ما أتوا به من كفر وعناد(٣).

والسر وراء هذا أن فرعون هو الأصل فى هذا السياق ، حيث بدأت القصة بإرسال الله – عز وجل – موسى إليه ، ثم توليه وإعراضه عن دعوته ، أما جنوده فقد ورد ذكرهم عرضا ؛ لذلك كان من الأنسب لترابط هذا السياق وتماسكه عود الضمير إلى فرعون وحده ، فيكون مبتدأ القصة ومنتهاها متعلقا بفرعون ، وهذا لا شك أبلغ وأحكم ، وقد ورد مثل هذا فى آيات سبق ذكرها هذا البحث(٤).

(١) ينظر : إعراب القرآن للنحاس ٤١/٣ ، و نظم الدرر ٣٥٦/١٢
(٢) سورة : الذاريات . الآية : ٤٠
(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٣٩٤/٧
(٤) ينظر : صـ ٢٣ ، ٢٩ من البحث

هذا بالإضافة إلى أن ذكر فرعون وحده فى خاتمة الآية ، يبين أنه هو السبب الرئيس فى إضلال جنده ، وإيرادهم موارد الهلكة والخسران ، فهو قائدهم وهم له تبع ؛ لذلك هو الذى يتحمل أوزارهم بسبب إضلالهم ؛ لذا نجد أن القرآن الكريم يجعل جنود فرعون كأنهم هم فرعون ذاته ، وذلك فى قوله تعالى:﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾[1] ، فالجنود هم فرعون ، فهما كالشىء الواحد ، لافصل بينهما٠

ومن الأسرار – أيضا – وراء عود الضمير إلى فرعون دون جنده ، هو تعظيم ملامة فرعون على ما اقترفه من جرائم إلى درجة أن ملامة جنده لا تساوى شيئا بجانب ملامته ؛ لذلك لم تذكر فى هذا السياق ، فهو قد أتى من الأمور المستنكرة ، والجرائم المستقبحة مالم يعرف لمثله ، وهل هناك جريمة أعظم من أن يدعى الألوهية ، فيقول أنا ربكم الأعلى؟٠

(١) سورة : البروج ٠ الآية : ١٧– ١٨

المبحث الثالث

الآيات المتعلقة بعموم الناس

والمقصود بعموم الناس هم كل من عدا رسول الله – ﷺ– ، والأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – لذا يشمل هذا المبحث الآيات المتعلقة بالمؤمنين وأهل الكتاب والمشركين ، وقد قسمت هذا المبحث إلى مقامات:

المقام الأول : التهديد والوعيد ٠

ورد فى هذا المقام قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[(١)] ٠

هذه الآية واحدة من تسع آيات نزلت فى رجل من المسلمين ، اسمه طعمة بن أبيرق سرق درعا، ثم ادعى أن رجلا يهوديا هو الذى سرق هذا الدرع، وهمَّ النبى– ﷺ– أن يعاقب اليهودى، فنزلت هذه الآيات وفيها تهديد ووعيد لكل من يلصق التهم بالأبرياء ،ويرميهم بما هم منه براء [(٢)] ٠

فى هذه الآية تقدم شيئان هما: (خَطِيٓئَةً أَوْ إِثْمًا) ، ولكن الضمير العائد إليهما ضمير مفرد فى قوله: (ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ) ٠

وقد ذهب العلماء إلى عدة أقوال فى بيان مرجع هذا الضمير لخصها الإمام ابن الجوزى حيث قال :" فإن قيل: الخطيئة والإثم اثنان، فكيف قال: به، فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أنه أراد: ثم يرم بهما، فاكتفى بإعادة الذكر على الإثم من إعادته على الخطيئة، كقوله تعالى: (انْفَضُّوا إِلَيْها) فخص التجارة، والمعنى للتجارة واللهو. والثاني: أن الهاء تعودُ على الكسب فلما دلّ بـ «يكسب» على الكسب كنى عنه. والثالث: أن الهاء راجعة على

(١) سورة : النساء ٠ الآية : ١١٢
(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ٣٥٩/٢

معنى الخطيئة والإثم كأنه قال: ومَن يكسب ذنباً، ثم يرم به. ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري ، والرابع:أن الهاء تعود على الإثم خاصة"[1].

من خلال النظر فى هذه الأقوال تبين أن الأرجح هو القول الأول؛ لأن رمى البرئ بشىء ليس فيه يعد من كبائر الذنوب، ويحتمل فيه صاحبه بهتانا وإثما عظيما ، كما ذكرت الآية ، وهذا يستوى فيه أن يكون الشىء الذى رُمى به هذا البرىء خطيئة أو إثما – سوف يأتى الفرق بينهما لاحقا – فكلاهما يؤديان إلى النتيجة نفسها ، وهى إلصاق تهمة ببرىء ظلما وعدوانا ؛ إذا التحذير من إلصاق الخطيئة بالبرىء معلوم من خلال السياق عن طريق الاكتفاء برجوع الضمير إلى الإثم وحده ، وهذا وراءه ملمح بلاغى سوف يأتى ذكره لاحقا٠

أما القول الثانى والثالث فضعيفان لما فيهما من تكلف لا داعى له ، بالإضافة إلى أن الأصل فى رجوع الضمائر أن ترجع إلى أقرب مذكور ، وهو فى هذه الآية الإثم ، والمعنى صحيح برجوعه إلى الإثم ، أما ما يخص الخطيئة فهو مفهوم عن طريق الاكتفاء برجوع الضمير إلى الإثم دونها كما سبق ذكره٠

أما القول الرابع فضعيف أيضا ؛ لأن إلصاق التهمة بالبرىء لا يتعلق بإلصاق الإثم به فقط ، وإنما يتعلق – أيضا – بإلصاق الخطيئة به ، وإلا لما ذكرها الله – عز وجل – فى الآية ، ولو كان الضمير راجعا إلى الإثم وحده لكان ذكر الخطيئة فى الآية لا فائدة منه ، فضلا عن مخالفته للحقيقة والواقع٠

(١) زاد المسير فى علم التفسير ٤٦٨/١

أما السر وراء رجوع الضمير إلى الإثم وحده ، فذلك لأنه هو الذى يتناسب تمام المناسبة مع الجرم الذى فعله هذا المسلم ؛ ويعد توصيفا حقيقيا لما فعله ؛ لأن الإثم: هو الذنب الذى يأتى به الإنسان متعمدا ، أما الخطيئة: فهى الذنب الذى يأتى به الإنسان عن طريق الخطأ ، وقيل: الإثم هو الكبيرة ، والخطيئة هى الصغيرة ، وقيل : الإثم هو الذنب المتعدي إلى الغير كالظلم والقتل والسرقة ، أما الخطيئة فهي الذنب القاصر على فاعلها(١).

وبالنظر فى هذه الأقوال نجد أن الإثم هو الذى ينطبق تمام المطابقة على ما فعله هذا المسلم من سرقة ، فهو ذنب متعمد ، وهو كبيرة من الكبائر ، وهو ذنب متعدى إلى الغير ؛ لذلك كان من الأنسب أن يعود الضمير على الإثم وحده؛ ليكون متلائما مع الجرم الذى فعله هذا المسلم، ومعبرا عن حقيقته.

هذا بالإضافة إلى أن الإثم قد ذكر قبل هذه الآية فى قوله : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٢) ، كما ذكر بعد ذلك – أيضا – فى قوله: (فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) ، إذا سياق الآيات كله يتحدث عن الإثم ، وهذا يتطلب أن يعود الضمير على الإثم وحده؛ حتى يتلاءم السياق من أوله إلى آخره ، ويكون وحدة واحدة متماسكة، ليس فيه نشاز يفسد تماسكه ، أو يذهب وحدته ، وهذا بلا شك دليل على دقة هذا النظم القرآني الكريم.

(١) ينظر : تفسير الطـــــبرى (جامع البيان فى تأويل القرآن) ١٩٧/٩ ، والتفسير الكبير ٢١٥/١١

(٢) سورة : النساء . الآية : ١١١

ومن أسرار عود الضمير على الإثم – أيضا – تبشيع ما فعله هذا المسلم ، وبيان مدى الجرم الكبير الذى اقترفه ، فهو لم يرم هذا البرىء بخطيئة قد تكون صغيرة أو غير متعمدة بل رماه بإثم كبير وذنب عظيم ، ولم يبال بما سيقع على هذا البرىء من عقوبة شديدة ، بل كل ما عناه هو تبرئة نفسه ولو على حساب غيره من الأبرياء٠

وللمبالغة فى تبشيع فعلة هذا المسلم عبر النظم الكريم بقوله: (ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ) على طريق الاستعارة ، حيث استعار الرمى لإلصاق التهمة به، وهذه الاستعارة تظهر بوضوح بشاعة ما فعله هذا المسلم ، وكأنه يحاول أن يرميه رميات قاتلة ، أو يقذفه بقذائف مميتة تميت شرفه ، وتزهق عرضه[1]٠

ثم كان التعبير بقوله: (بَرِيٓـًٔا) مما يظهر – أيضا – بشاعة هذه الجريمة ؛ لأن هذه الكلمة توحى بالبعد التام لهذا البرىء عن ملابسات هذه الجريمة ، ومقاربة أسبابها كما توحى بسلامة عرضه وطهر شرفه ، ومع كل ذلك أقدم هذا المسلم على قذف هذا البرىء بهذه الجريمة النكراء٠

ثم كان ختام الآية الكريمة بما يظهر عاقبة هذه الجريمة النكراء ، وبما يظهر بشاعتها وذلك فى قوله: (فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) ، فهذا المجرم لم يحتمل بهتانا فقط ، وإنما احتمل معه إثما ، وهذا الإثم ليس كأى إثم ، وإنما هو إثم مبين واضح ظاهر ، قد وضح عاره ، وظهر شناره. كما أن تنكير (بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) أفاد عظمهما ، فهما عظيمان تنوء بحملهما الظهور ، وتثقل بهما الكواهل٠

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٩٧/٥

وهكذا ختمت الآية الكريمة ختاما أظهر بشاعة هذه الفعلة ، وسوء عاقبتها ، وهذا مما يدفع كل ذى عقل إلى تجنب فعلها ، والوقوع فيها .

ومن الآيات – أيضا – الواردة فى هذا المقام قوله تعالى : ﴿ ... وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[١] ، حيث تقدم ذكر الذهب والفضة ، ولكن الضمير العائد إليهما كان مفردا (وَلَا يُنفِقُونَهَا) .

وللعلماء فى بيان مرجع هذا الضمير قولان[٢] :

الأول: أنه يرجع إلى الفضة ؛ لأنها أقرب مذكور ، ووقع الاكتفاء برجوع الضمير إلى الفضة عن رجوعه إلى الذهب .

الثانى: أنه يرجع إلى محذوف معلوم من السياق ، وهذا المحذوف قدره بعضهم بالأموال ، وآخرون بالكنوز .

والأقرب للصواب من هذين القولين القول الأول ؛ لأن رجوع الضمير إلى أحد المذكورين أسلوب شائع عند العرب ؛ لذلك لا داعى لتقدير محذوف ما دام المعنى واضحا ، وجاريا على ما تعارف عليه العرب ؛ لذلك ذهب أبو عبيدة إلى هذا القول فى كتابه مجاز القرآن[٣] .

والسر وراء رجوع الضمير إلى الفضة دون الذهب ؛ لأن الناس إليها أحوج ، والتعامل بها أغلب ، واستخدامها فى التعاملات أعم وأشهر ، فالفضة تكاد أن تكون فى أيدى كل الناس وهذا بخلاف الذهب الذى لايوجد إلا عند ثلة من الأغنياء ، والمقام مقام تهديد ووعيد فناسب

(١) سورة : التوبة . الآية : ٣٤

(٢) ينظر : معانى القرآن .للفراء١/٤٣٤، وإعراب القرآن .للنحاس ١١٦/٢

(٣) ينظر : مجاز القرآن ٢٥٧/١

ذلك رجوع الضمير إلى الفضة ؛ لكى يعم التهديد والوعيد كل الناس إذا هم كنزوا الذهب والفضة ولم يؤدوا حق الله فيهما[١] .

ومن الأسرار – أيضا– المبالغة فى تهديد هؤلاء الكانزين ، وتبشيع ما ينتظرهم من عذاب أليم ، وذلك عن طريق رجوع الضمير إلى الأدنى وهو الفضة دون الأعلى وهو الذهب ، فإذا كان هذا العذاب الأليم سوف يكون جزاء لمن يكنز الفضة ولا ينفقها فى سبيل الله ، فما بالكم بمن يكنز الذهب وهو أغلى ثمنا ، وأعظم قيمة لاشك ان عذابه أعظم، وعقابه أشد٠

ثم ختم النظم الكريم الآية بأسلوب تهكمى(فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)، حيث استعار التبشير للإنذار والوعيد ؛ لكى يسخر منهم ، ويتهكم بهم بسبب ما أوقعوا أنفسهم فيه من العذاب الأليم بسبب هذا الكنز ، وهذا الأسلوب أريد به بيان وخامة عاقبتهم ، وسوء منقلبهم حتى يكون زاجرا لهم ولغيرهم عن الوقوع فيه ، والتعرض لأسبابه[٢] .

ومن الآيات – أيضا – قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ٠٠٠الآية ﴾[٣] ، حيث أُفرد الضمير فى قوله: (أَحْصَىٰهَا) وقد تقدمه مذكوران هما : (صَغِيرَةً – كَبِيرَةً) ، والأصل (أحصاهما) ؛ لأن المتقدم جنسان مستقلان ، فالذنوب كما هو معروف نوعان : صغائر

(١) ينظر : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٢٣/٤ الطبعة : بدون٠ دار النشر: دار صادر بيروت ، وروح المعانى ٠ للألوسى ٢٨٠/٥
(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٧٨/١٠
(٣) سورة : الكهف ٠ الآية : ٤٩

وكبائر ، وهذا هو ما ذهب إليه معـــربو القرآن الكريم ، حيث جـــعلوا جملـة (أحصاها) صفة لـ (صغيرة وكبيرة) ، والضمير يرجع إليهما [١] .

والسر وراء إفراد هذا الضمير هو بيان أن الصغيرة والكبيرة سواء فى علم الله – عز وجل – بهما ، وإحصاء الكتاب لهما ، فهما كأنهما شىء واحد ، وهذا فيه تأكيد ومبالغة فى قوة هذا الإحصاء ، وأن الصغيرة شأنها شأن الكبيرة ، وهذا فيه مزيد تهديد ووعيد لكل من يظن أن هناك من الصغائر ما قد يغيب عن علم الله – عز وجل– وإحصاء الكتاب له .

ومن الأسرار – أيضا – إظهار سهولة هذا الإحصاء ، فإبراز المحصى فى صورة شىء واحد ، أدل على سهولة إحصائه من إبرازه فى صورة شيئين ؛ لأنه كلما قل العدد كلما كان الإحصاء أيسر وأضبط، وهذه الإشارات البلاغية قصد بها تهديد كل من يستهين بمعاصى الله – عز وجل – وتحذيره بأن كل شىء محصى عليه ، فليتجنب إذا الاستهانة بها، والوقوع فيها .

وقد قدم النظم الكريم (صَغِيرَةً) على (كَبِيرَةً) ؛ لأن الاستهانة بها أكبر، والوقوع فيها أكثر، والمقام مقام تحذير من الوقوع فى مغبة المعاصى، فناسب ذلك تقديم الصغيرة ، كما أن تقديمها يوحى بخطورتها ، فإنها فى الغالب قد تجر إلى الكبيرة إذا أكثر الإنسان من الوقوع فيها [٢] .

كما أسند النظم الكريم الإحصاء إلى الكتاب ، مع أن الإحصاء ما قام به إلا كاتب الكتاب من الملائكة ؛ للمبالغة فى قوة هذا الإحصاء ، ومدى سعته وشموله لكل شىء ، فهذا الكتاب صوره القرآن الكريم وكأن له عقل

---

(١) ينظر : الدر المصون ٥٠٧/٧ ، والجـدول فى إعراب القرآن الكريم،محمود بن عبدالرحيم صافي ٢٠٢/١٥ الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ،الناشر: دار الرشـيد، دمشق – مؤسسة الإيمـان بيروت .

(٢) ينظر : التفسير الكبير ٤٧٠/٢١

وإدراك يحصى به الذنوب ، ويعد به السيئات ، لذا فقد أصبح مشاركا لكاتبه من الملائكة فى الإحصاء والعد ، وهذه مبالغة قوية يتطلبها المقام، وتؤكد ما يرمى إليه من التهديد والتحذير[١] ٠

المقام الثانى : النصح والإرشاد

ورد فيه قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[٢] ، حيث أفرد الضمير فى قوله: (وَإِنَّهَا) مع تقدم شيئين قبله هما: (الصبر والصلاة)٠

وللعلماء فى مرجع هذا الضمير أقوال متعددة أشهرها ثلاثة أقوال[٣] :

الأول: أنه يرجع إلى (الصبر والصلاة) ولكن وقع الاكتفاء برجوع الضمير إلى الصلاة دون الصبر ٠

الثانى: أنه يرجع إلى الصلاة فقط٠

الثالث: أنه يرجع إلى الاستعانة المفهومة من قوله (وَٱسْتَعِينُواْ)٠

وبالتأمل فى هذه الأقوال الثلاثة نجد أن الأقرب للصواب هو القول الأول ؛ لأن الأصل هو رجوع الضمير إلى متقدم عليه مذكور فى الكلام ، والمتقدم الذى يصلح رجوع الضمير إليه هو الصلاة ، كما أن هذا هو ظاهر الكلام ، ولا خروج عن الظاهر إلا بدليل [٤] ، أما رجوع الضمير إلى الاستعانة فهذا خلاف الأصل ، ولا يلجأ إليه إلا عند عدم وجود مذكور فى الكلام يرجع الضمير إليه ، مثل قوله تعالى: (ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ)[٥]

---

(١) ينظر : تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ٤١٩/١٠

(٢) سورة : البقرة ٠ الآية : ٤٥

(٣) ينظر: مجاز القران٣٩/١ ومعالم التنزيل في تفسير القرآن٠للإمام البغوي تحقيق: عبدالرزاق المهدي١١٢/١ ط: الأولى ١٤٢٠هـ دار إحياء التراث العربي بيروت٠

(٤) ينظر : البحر المحيط ٢٩٩/١

(٥) سورة : المائدة ٠ الآية : ٨

فالضمير (هو) عاد إلى العدل المفهوم من قوله: (ٱعۡدِلُواْ) ؛ لعدم وجود مذكور فى الكلام يرجع الضمير إليه٠

والصبر هو حبس النفس على ما تكره سواء كان عند فعل الطاعات أو ترك المعاصى(١) ، ومن المعلوم أن هذا الصبر ثقيل جدا وشاق على غير الخاشعين – وهم الطائعون لله ، المنقادون لأوامره(٢) – كثقل الصلاة، وهذا ما يؤيد أن الضمير فى قوله: (وَإِنَّهَا) مقصود به الصبر والصلاة معا، وليس الصلاة فقط كما ذهب إليه أصحاب القول الثانى٠

أما السبب وراء إفراد الضمير ورجوعه إلى الصلاة دون الصبر؛ فلبيان أهمية الصلاة وعظم شأنها ، ومدى أثرها الكبير فى إصلاح الفرد والمجتمع، وأن عبادة هذا شأنها ينبغى الاهتمام بها والمحافظة عليها ، لا أن تكون ثقيلة على القلوب ، شاقة على النفوس ، وهذا فيه تعريض بهؤلاء المتثاقلين عن الصلاة بأنهم ليسوا من الخاشعين لله – عز وجل – الطائعين له ، ولعل فى هذا أن يكون دافعا لهم للمحافظة على أدائها ، والإتيان بها فى أوقاتها(٣)٠

ومما يؤكد ذلك أن الله – عز وجل – أمر قبل هذه الآية بإقامة الصلاة، فقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(٤) ، إذا سياق الآيات مقصود به الاهتمام بشأن الصلاة ، والتعريض بهؤلاء المفرطين فيها المتثاقلين عنها ؛ لذلك أكد ثقل هذه الصلاة على غير الخاشعين بـ(إن) واللام المؤكدتين فى قوله: (وَإِنَّهَا) ،

(١) ينظر : تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ٣٧٢/١
(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ١٥٦/١
(٣) ينظر : تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل) ٧٨/١
(٤) سورة : البقرة ٠ الآية : ٤٣

ومن الأسباب – أيضا – وراء رجوع الضمير إلى الصلاة دون الصبر أن من أعظم أسباب حصول الصبر على فعل الطاعات وترك المعاصى هى الصلاة ، فالصلاة تمد الإنسان بطاقة إيمانية هائلة ، وتزرع فى قلبه خشية الله ومراقبته ، وهذا له أكبر الأثر فى حصول الصبر فى قلب الإنسان ، فكأن الصلاة هى الأصل ، والصبر تابع لها ؛ لذلك رجع الضمير إلى الصلاة للفت الأذهان إلى هذا الملمح ، وأنه إذا كان هناك صلاة كان صبر، وإذا لم يكن هناك صلاة فغالبا لا وجود لصبر يعين الإنسان على فعل الطاعات وترك المعاصى ، وهذا ما يشهد له الواقع ، ويؤيده٠

وورد فى هذا المقام – أيضا – قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[1] ٠

سبب نزول هذه الآية أن النبى – ﷺ– كان يخطب فى الناس فى المدينة فقدمت قافلة للصحابى دحية بن الكلبى محملة بالغذاء والكساء ، وكان بين يديها طبل يضرب به فانفض الناس عن رسول الله– ﷺ– إلا اثنا عشر رجلا ، فنزلت الآية[2] ٠

فى هذه الآية تقدم ذكر التجارة واللهو ، ولكن الضمير عاد إلى التجارة دون اللهو ، والسر وراء ذلك أن التجارة هى الأهم لهم ، كما أن غالب انفضاضهم كان لها وليس للهو وهو الطبل الذى يضرب به أمامها[3] ٠

---

(١) سورة : الجمعة ٠ الآية : ١١

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ١٤٩/٨

(٣) ينظر: النكت والعيون ١٢/٦، وتفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ١١١/١٨

ومن الأسرار – أيضا – أن التجارة هى سبب اللهو ، فلولا هذه القافلة لما كان هناك طبل يضرب بين يديها ، فالتجارة هى الأصل ، واللهو تابع لها ؛ لذلك عاد الضمير إليها(١) .

ولما كانت التجارة هى الأصل ، وهى الأهم قدمها النظم الكريم على اللهو ، ثم أرجع الضمير إليها مع أن الأجود فى أساليب العربية أن يرجع الضمير إلى أقرب مذكور (٢).

وما دام النظم الكريم قدم التجارة على اللهو لأهميتها ، فلم قدم اللهو على التجارة فى نهاية الآية؟.

حاول د/ فاضل السامرائى أن يبين السبب وراء ذلك فقال :" لأن اللهو أعمُّ من التجارة، فليس كل الناس يشتغلون في التجارة ولكن أكثرهم يلهون. فالفقراء والأغنياء يلهون، فكان اللهو أعم فقدمه لذلك إذ كان حكماً عاماً ، فقدم التجارة في الحكم الخاص ؛ لأنها في حادثة معينة ، وقدم اللهو في الحكم العام لأنه أعم"(٣) .

نلحظ مما قاله د/ السامرائى أنه جعل نهاية الآية حكما عاما لجميع الناس ، أما بدايتها فهو حكم خاص بقصة انفضاض بعض الصحابة عن رسول الله – ﷺ– عند قدوم القافلة ، ولكن يبدو أن هذا مخالف للصواب لأن الآية كلها نزلت فى هذه الواقعة الخاصة فلماذا نقسمها إذا إلى حكم عام ، وحكم خاص ، وما الدليل على ذلك؟ ، وإذا كان قد ذهب إلى هذا لأن اللهو والتجارة فى نهاية الآية معرفان بالألف واللام لذا فقد أفادت

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٠
(٢) ينظر: معانى القرآن .للفراء ٣/ ١٥٧
(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل .د/ فاضل السامرائي .صـ١٧٥ الطبعة: لثالثة ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ دار عمار للنشر والتوزيع، عمان – الأردن .

العموم ، فالرد عليه أن الألف واللام للعهد ، أى: اللهو والتجارة المعهودان والمتعلقان بهذه الواقعة ٠

ويبدو أن الأقرب للصواب أن تقديم اللهو على التجارة ؛ لأن اللهو محبب للنفوس مروح عن القلوب ، وهذا بخلاف التجارة ففيها من التعب والعناء الكثير ، والنعيم الذى أعده الله للمؤمنين فى الجنة هو من جنس اللهو ؛ لأنه لا تعب فيه ولا نصب ، كما أنه نعيم تتشوق إليه النفوس ، وتتوق إليه القلوب ، فأراد الله – عز وجل – أن يبين لهم أن الجنة وما فيها من لهو ومتع خير من لهو الدنيا ومتعها ، لذلك كان من المناسبة تقديم اللهو على التجارة والله أعلم٠

وهناك سبب آخر ذكره د/ السامرائى – وهو مقبول – أن التجارة أخرت عن اللهو حتى تتناسب مع قوله: (وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) ، فالتجارة من أسباب الرزق ؛ لذلك وضعها بجانبه[1]٠

المقام الثالث : إظهار ضلالات المشركين٠

وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِ ٠٠٠ الآية﴾[2][3]

(١) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل٠صـ ١٧٦
(٢) سورة : الأنعام ٠ الآية : ١٣٨
(٣) معنى (حجر)، أى: حرام ، وقد وقع وصفا لـ (الأنعام والحرث) مع انه مفرد؛ لأنه على صيغة (فِعْل) التى يجوز أن تكون وصـــــفا للمفرد والمثنى والجمع (ينظر : الكشاف ٢/٧١)٠

تقدم مذكوران فى هذه الآية هما : (أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ) ، ولكن الضمير فى قوله: (لَّا يَطْعَمُهَآ) عاد إلى الأنعام دون الحرث ، لذلك أعرب معـــــربو القرآن الكريم جملـــــة (لايطعمها) صفة للأنعام[١] .

والسبب وراء ذلك هو ملاءمة السياق ، فسياق الآية كله يتحدث عن الأنعام ، وبيان مدى افتراءات المشركين على الله – عز وجل – بخصوص هذه الأنعام ، وكيف أنهم قسموا هذه الأنعام إلى أصناف اخترعوها وابتدعوها ، فكان من الملائم إذا رجوع الضمير إلى الأنعام وحدها حتى يكون سياق الآية كله متعلقا بالأنعام ، ويكون تقسيم الأنعام فيه تقسيما مستقيما منضبطا .

ومن الأسباب – أيضا – أن الأنعام لدى العرب أهم من الحرث – أى الزرع – فهى معظم أموالهم ، وبها قوام حياتهم ، وعليها جل اعتمادهم فى حلهم وترحالهم ، كما أن الاهتمام بمنع أحد أن يطعمها كان أهم من الزرع، هذا بالإضافة إلى شهرة المنع من أن يطعمها أحد ، فقد شُهر عند العرب شهرة كبيرة أن يمنعوا بعض أصناف الأنعام من أن يأكله بعض الناس ، وافتروا على الله كذبا أنه هو الذى أمرهم بهذا ، كما حرموا أنعاما جعلوها لآلهتهم ، ولقد سجل عليهم القرآن كثيرا من هذه الافتراءات والأكاذيب[٢] ؛ لذلك كان رجوع الضمير إلى الأنعام ؛ لكى يتلاءم مع أهمية هذا الأمر عندهم ، وإظهار مدى عنايتهم به ، ومداومتهم عليه .

وهذا هو السبب أيضا – وراء تقديم النظم الكريم (الأنعام) على (الحرث) ؛ فالتقديم هنا ملحوظ فيه أهمية الأنعام لهم ، ومما يدل على ذلك أن الله – عز وجل – قبل هذه الآية قدم (الحرث) على (الأنعام) فى

(١) ينظر : الدر المصون ١٨٢/٥
(٢) ينظر : سورة : المائدة . الآية : ١٠٣

قوله تعالى :﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ٠٠٠الآية ﴾[1] ، فالله – عز وجل – عندما تحدث عنهم قدم (الحرث) على (الأنعام) ؛ لأن الحرث سبب فى حياة الأنعام وبقائها ، فالتقديم ملحوظ فيه تقديم السبب على المسبب ، وهذا هو الواقع ، لكن عندما حكى مقالتهم التى قالوها بألسنتهم قدم (الأنعام) على (الحرث) ؛ لأنها الأهم ، فهم قد بدأوا مقالتهم بما هو أهم عندهم وأشهر لديهم ، فسبحان من هذا كلامه٠

ومن الآيات الواردة – أيضا – فى هذا المقام قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ٠٠٠ الآية ﴾[2] ، حيث تقدم ذكر الأموال والأولاد ، ولكن الضمير فى جملة الصلة (تُقَرِّبُكُمْ) ضمير مفرد ، وهو يعود على اسم الموصول (التى)٠

وقد ذهب العلماء إلى ثلاثة أقوال[3] فى تأويل إفراد الاسم الموصول وصلته وهى :

الأول : ان اسم الموصول (التى) مقصود به الأموال ، ووقع الاكتفاء به عن ذكر الأولاد٠

الثانى : أن اسم الموصول (التى) يشمل الأموال والأولاد ؛ لأنهما جمعا تكسير ، وجموع التكسير تعامل معاملة المفرد٠

الثالث : أنه صفة لموصوف محذوف ، تقديره وما أموالكم ولا أولادكم بالتقوى أو بالخصلة التى تقربكم عندنا زلفى٠

---

(١) سورة : الأنعام ٠ الآية : ١٣٦

(٢) سورة : سبأ ٠ الآية : ٣٧

(٣) تنظر هذه الأقوال فى: معانى القرآن للفراء٢/٣٦٣-٣٦٤ ، والكشاف ٣/٥٨٦، وتفسير البيضاوى (أنوار التنزيل) ٤/٢٤٩ و البحر المحيط ٨/٥٥٤

وبالنظر فى هذه الأقوال نجد أنها كلها تدل على معنى واحد قصده الله – عز وجل – ووجهه للمشركين ، وهو أن أموالكم وأولادكم أيها المشركون لن يقربوكم من الله زلفى.

أما اختلاف العلماء فكان فى الأسلوب الذى صاغ به النظم الكريم هذا المعنى ، ويبدو أن الأقرب للصواب هو القول الأول ؛ لأن الاقتصار على رجوع الضمير إلى أحد المتقدميْن دون الآخر أسلوب شائع فى اللغة العربية ، كما أن القرآن استخدمه فى آيات كثيرة ، وهذا بخلاف القول الثانى فليس مشهورا فى اللغة العربية أن يعامل جمع التكسير للعقلاء مثل (الأولاد) معاملة المفرد ، حتى وإن كان صحيحا فى الاستعمال ، كما أن القول الثالث ضعيف – أيضا – لأن الأصل عدم تقدير محذوف ، ومادام المعنى صحيحا واضحا ، وجاريا على أساليب العرب فى كلامها ، فلا داعى إذا لتقدير محذوف ؛ لذلك اختار الإمام الزجاج القول الأول[1].

والسبب وراء الاكتفاء برجوع الموصول وصلته إلى الأموال دون الأولاد، أن الأموال هى الأكثر استخداما ، والأغلب استعمالا فى نيل الإنسان ما يتمناه من علو الشأن ورفعة المكانة ، فبالمال يستعلى الإنسان على من دونه ، ويتزلف به إلى من يحب ، وبه تشترى المناصب، وتنال الدرجات ، وبه يتوصل الإنسان إلى كل ما يحب ويشتهى ، وهذا بخلاف الأولاد الذين فى كثير من الأحيان لا يستطيعون أن يرفعوا من شأن آبائهم ، أو يساعدوهم فى نيل المناصب العالية ، والرتب الرفيعة ، أو أن يجلبوا لهم ما يتمنونه ويشتهونه ، والواقع يعضد ذلك ويؤيده ، فكم من

(١) ينظر : معانى القرآن ٢٥٥/٤ ، والبسيط ٠للواحدى ٣٧٢/١٨

أناس عندهم كثير من الأولاد ولكن لا يستطيعون أن يحصلوا بهم كل ما يريدونه ، أما من عنده مال فيمكنه أن يصل به إلى كل ما يهوى ويتمنى٠

لذلك أراد النظم الكريم أن يلفت أذهان المخاطبين إلى هذه الحقيقة ، ويؤكدها فى نفوسهم ويقول لهم مهما كثرت أموالكم فلن تقربكم منى زلفى، لأن سبيل القرب الحقيقى هو الإيمان والعمل الصالح٠

والذى يدل على ذلك أن سياق الآيات أولى اهتماما بالأموال دون الأولاد ، حيث ذكر فى آيتين قبل الآية السابقة وبعدها أن المال هو مال الله يبسطه لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١] ، وقال – أيضا – ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾[٢] ٠

لذلك قدم النظم القرآني الأموال على الأولاد ، ثم عبر بصيغة الجمع (أَمْوَٰلُكُمْ) للدلالة على كثرتها ، ولتشمل جميع أنواع المال ، كما أكد النفى بالباء الداخلة على اسم الموصول (بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ) [٣] ، كل ذلك لكى ينزع من قلوب المخاطبين الوهم بأن الأموال هى سبب التقرب من الله – عز وجل–، والتزلف إليه ، وأنها من الممكن أن تغنى عن الإيمان والعمل الصالح٠

المقام الرابع : امتنان الله – عز وجل – بالنعم

ورد فيه قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٤][٥] ٠

---

(١) سورة : سبأ ٠ الآية : ٣٦
(٢) سورة : سبأ ٠ الآية : ٣٩
(٣) ينظر : نظم الدرر ٥١٣/١٥
(٤) سورة : النحل ٠ الآية : ٦٧
(٥) السَّكَر: هو الخمر ، والامتنان بها فى هذه الآية قبل تحريمها ، وقيل: نقيع التمر وقيل: هو الخل بلغة الحبشة ٠ ينظر (النكت والعيون ١٩٨/٣)

فى هذه الآية تقدم ذكر النخيل والأعناب ، لكن الضمير فى قوله: (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ) ضمير مفرد ، والأصل أن يكون مثنى (تتخذون منهما) ، وقد اتجه العلماء فى بيان مرجع هذا الضمير إلى اتجاهين(١):

الأول : عدم تقدير محذوف وبالتالى فالضمير يرجع إلى النخيل ؛ لأنه هو المتقدم ويصح رجوع الضمير إليه .

الثانى : تقدير محذوف يفهم من سياق الكلام ، مثل تقدير (عصير)، أى : ومن عصير ثمرات النخيل تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ومنهم من قدره (بعض) ، أى : ومن بعض ثمرات النخيل ، ومنهم من جعله راجعا إلى (المذكور) ، تتخذون منه ، أى : المذكور .

وبالنظر فى هذين الاتجاهين نجد أن الأصل هو عدم الحذف ، ولا يُلجأ لتقدير محذوف إلا إذا توقف فهم المعنى على تقدير هذا المحذوف ، أما فى هذه الآية فالمعنى واضح وتام لو رجع الضمير إلى النخيل دون الأعناب ، كما أن رجوع الضمير إلى أحد المذكورين أسلوب معروف وشائع عند العرب ، ولا يخل بفهم المعنى ؛ لذا كان الأرجح فى هذه الآية هو رجوع الضمير إلى النخيل دون الأعناب لمقصد بلاغى قصد إليه النظم الكريم .

وبالتأمل نجد أن هذا المقصد هو لفت انتباه المخاطبين إلى عظيم نعمة الله – عز وجل – عليهم بان جعل لهم نخيلا يقتاتون من رطبه ، ويدخرون من تمره ، ويشربون من عصيره ، فمن المعلوم أن أشهر وأعم ما كان يقتاته العرب هو التمر ، فقد كان معظم طعامهم ، وجل غذائهم ؛

(١) ينظر : الكشاف ٦١٧/٢ ، والدر المصون ٢٥٩/٧

لذلك كان من البلاغة فى مقام الامتنان أن يركز على ما هو أهم لديهم ، وأشهر عندهم حتى تكون المنة أعظم ، وإظهار الفضل أكبر ٠

ومما يؤكد ذلك أن الله – عز وجل – امتن عليهم فى الآية السابقة بنعمة اللبن فقال تعالى :﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾[1] ، واللبن كما هو معروف أشهر مشروبات العرب ولا يكاد يخلو منه بيت ، من خلال هذا يتبين أن القرآن الكريم يلفت انتباههم إلى نعمتين من أعظم النعم اللبن وهو أشهر مشروباتهم ، والتمر وهو أشهر مطعوماتهم ٠

وهذا هو السبب – أيضا – وراء تقديم النظم الكريم للنخيل على الأعناب ، كما كرر النظم الكريم حرف الجار (من) فى قوله : (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ)؛ للتأكيد على قيمة هذه النعمة العظيمة ، وأثرها البالغ فى حياتهم[2] ٠

كما ورد فيه – أيضا – قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3] ٠

فى هذه الآية تقدم ذكر البحرين – وهما البحر والنهر على سبيل التغليب – ولكن الضمير العائد إليهما فى قوله : (وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ) ضمير مفرد ، والأصل : وترى الفلك مواخر فيهما ٠

وهذا الضمير اختلف فيه العلماء على قولين :

---

(١) سورة : النحل ٠ الآية : ٦٦

(٢) ينظر : تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل) ٢٣٢/٣

(٣) سورة فاطر : ١٢

الأول : ذهب إليه أبو جعفر النحاس ، وهو أن الضمير يرجع إلى البحر خاصة دون النهر ، فيقول :" وترى الفلك فيه مواخر أي في الملح خاصة ، ولولا ذلك لقال فيهما "(١).

الثانى : ذهب إليه بعض المفسرين كالزمخشرى ، وأبى السعود إلى أن الضمير فى قوله: (فِيهِ) يرجع إلى (كُلٍّ) فى قوله: (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) ، أى : ومن كل بحر ونهر تأكلون لحما طريا ، وعلى هذا فالضمير (فِيهِ) يشمل البحر والنهر معا(٢).

والأقرب – والله أعلم – أن يكون الضمير راجعا إلى البحر فقط – كما ذهب إليه أبو جعفر النحاس – وعلى هذا يكون فى الآية اكتفاء برجوع الضمير إلى البحر دون النهر فى جريان السفن ، وشقها للماء .

والذى يدل على ذلك أن جميع آيات القرآن الكريم التى تحدثت عن تسخير الفلك وردت بالنص على تسخيره فى البحار دون الأنهار ، وذلك مثل قوله – تعالى – ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ... الآية ﴾(٣) ، وقوله – تعالى – ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٤).

بل إن الآيات التى كان يرد فيها ذكر البحار مع الأنهار كان يرد تسخير الفلك فيها منسوبا صراحة للبحار دون الأنهار ، وذلك كقوله: تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾(٥).

---

(١) إعراب القرآن . للإمام أبى جعفر النحاس ٢٤٩/٣

(٢) ينظر : الكشاف ٦٠٤/٣ ، وتفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم) ١٤٧/٧

(٣) سورة البقرة : ١٦٤

(٤) سورة الجاثية : ١٢

(٥) سورة إبراهيم : ٣٢

إذا الضمير هنا راجع إلى البحر دون النهر ، ولكن مقصود به – أيضا – النهر ؛ لأن السفن تجرى – أيضا – فى الأنهار ، وهذا واقع مشاهد ومحسوس٠

والسر وراء هذا أن البحر خطره أعظم وضرره أكبر ، فمن المعلوم أن البحار مترامية الأطراف ، متباعدة الأنحاء ، متلاطمة الأمواج ، ومليئة بالأسماك المفترسة ، والحيتان الفاتكة ، ففى هذه الطبيعة القاسية، والبيئة المليئة بالمهالك والأخطار ، يكون تسخير الفلك وجريانه أدل على عظيم قدرة الله – عز وجل – ، وبديع صنعته فى هذا الكون ، إذ أجرى الفلك فى هذه البحار ، وجعلها تسير غادية ورائحة وسط هذه المهالك والأخطار؛ لمنافع الناس بلا عائق يعوقها ، أو عقبة تحول دون سيرها٠

وهذا بخلاف الأنهار فليس فيها من المخاطر مثل ما فى البحار، وليس فيها من العقبات ، والمعوقات ما يحول دون جريان السفن بها؛ لذلك كان الاكتفاء برجوع الضمير إلى البحار فى هذه الآية أبلغ فى إظهار قدرة الله – عز وجل – ، وآكد فى إبراز رحمته ولطفه ببنى البشر٠

ولعل هذا – أيضا – هو السبب وراء تغليب ذكر البحر على النهر ، فقال: البحران ، ولم يقل : النهران ، فقدرة الله – عز وجل – فى خلق البحار أعجب وأعظم من خلق الأنهار٠

ويضاف إلى ما سبق سر آخر ذكره الألوسى حيث قال :" وأمر الفلك فيه – أى البحر – أعظم من أمرها في البحر العذب ؛ لذا اقتصر على رؤية الفلك فيه على الحال التي ذكر الله تعالى"[1]٠

(١) روح المعانى ٣٥٣/١١

ومقصود الألوسى أن البحار تجرى فيها فى الغالب الأفلاك العظيمة ، والسفن التى تشبه الجبال فى سعتها وضخامتها ، وهذا بخلاف الأنهار فإنها تجرى فيها غالبا السفن الصغيرة ، وهذا يدل على أن شأن الأفلاك فى البحار أعظم منها فى الأنهار؛ لذا وقع الاقتصار برجوع الضمير إليها .

ويُلحظ أن الحق – سبحانه وتعالى – ذكر العلة من وراء تسخير الفلك فى البحر فى بعض الآيات ، وهى الابتغاء من فضله ، وهذا يدل على عظم المنافع المبتغاة من وراء هذا التسخير ؛ لأن كلمة الفضل تدل على الخير الكثير ، والنفع العميم ، وعلى هذا تكون المنافع المرجوة من وراء جريان الفلك فى البحار ، أعظم وأعم وأنفع من المنافع المرجوة من جريانها فى الأنهار ، وهذا يعد وجها صحيحا يمكن به تفسير سبب الاقتصار على رجوع الضمير إلى البحر دون النهر .

كما أن التعبير عن ابتغاء هذه المنافع بالفعل المضارع (لِتَبْتَغُوا)، يدل على تجدد المنافع المبتغاة من وراء جريان الأفلاك فى البحار ، وهذا يدل على مدى فضل الله – عز وجل – على عباده ، وعظيم إنعامه عليهم .

خاتمة البحث

وبعد هذا التطواف الممتع فى رحاب آيات القرآن الكريم ، والعيش فى أجواء نظمها المبدع ، أبين أهم النتائج التى توصلت لها فى هذا البحث، وهى:

الأولى: أن أسلوب رجوع الضمير إلى أحد المتقدمين أسلوب عربى أصيل، وطريقة من طرائقهم فى التعبير ، استخدموه وأكثروا منه طلبا للإيجاز والاختصار ٠

الثانية: لهذا الأسلوب بلاغته بجانب الإيجاز ، وهو لفت الذهن وتنبيه العقل إلى المعنى الذى قصده المتكلم من وراء رجوع الضمير إلى أحد المتقدمين دون الآخر ٠

الثالثة: سبب لفت الذهن ، وتنبيه العقل فى هذا الأسلوب هو خروجه عن المألوف فى نسق الكلام ، حيث يرجع الضمير إلى المتقدمين مفردا ، والأصل أن يرجع مثنى ، وكلما خرج الكلام فى نسقه عن المألوف كلما كان أشد تنبيها للعقل ، وإيقاظا له ٠

الرابعة: الأصل أن يرجع الضمير إلى الثانى ، وهذا هو الأكثر والأجود فى العربية ، ولكن قد يرجع إلى الأول لمعان قصدها المتكلم ، وأراد لفت الأذهان إليها ٠

الخامسة: إذا كان هناك عدة ضمائر وقد تقدمها مذكوران ، فالأبلغ أن ترجع هذه الضمائر إلى مذكور واحد ، وليس من البلاغة أن نفرق الضمائر بحيث يعود بعضها إلى أحد المذكورين ، وبعضها يعود إلى المذكور الآخر ، فهذا فيه تفكيك للنظم ، وتشتيت للضمائر بلا مسوغ ٠

السادسة: دائما ما يجعل القرآن الكريم الضمير العائد إلى الله ورسوله ضميرا مفردا ؛ تأدبا مع الله – عز وجل – أن يشرك معه أحد من خلقه فى ضمير يجمعهما .

السابعة: غالبا ما يُعرف المذكور الذى رجع الضمير إليه ، لكن أحيانا لا يُعرف وذلك لاستواء المذكورين المتقدمين فى التذكير أو التأنيث، والسبب عندئذ فى رجوع الضمير مفردا إلى هذين المذكورين هو التسوية بينهما ، ووجعلهما كأنهما شىء واحد فى المعنى الذى أراده المتكلم ، وقصد له .

الثامنة: القرآن الكريم أولى عناية كبيرة بالسياق ، ومدى ترابطه وتماسكه؛ لذلك كان رجوع الضمير إلى أحد المتقدمين كثيرا ما كان يراعى هذه الناحية ، حيث يرجع الضمير إلى المذكور الذى يدور السياق حوله ، ويولى به عناية واهتماما .

التاسعة: كثيرا ما كان يرجع الضمير إلى الأهم بالنسبة للمخاطبين ، أو الأشهر عندهم وخاصة فى مقام الامتنان ، وهذا لا شك أحكم وأبلغ ، فإن الذى يهتم به الناس ، ويأخذ شهرة عندهم دائما ما يكون فى بؤرة اهتمامهم ووعيهم ، فإذا ما وقع الامتنان به كان أدل على كمال العناية ، وعظيم الرعاية .

العاشرة: اهتمام القرآن الكريم دائما بتحميل المسئولية للقادة دون الأتباع؛ لأنهم هم الذى يغرون أتباعهم ، ويزينون لهم ما فيه ضررهم وهلاكهم ، ومن الأساليب الذى اتخذها القرآن لذلك رجوع الضمير إلى القادة دون الأتباع ؛ للفت الأذهان إلى هذا المعنى ، وأن القائد لا بد أن يكون على قدر المسئولية تجاه أتباعه . والحمد لله رب العالمين

الباحث/ أنس محمد عبد المنعم الغنام

قائمة المراجع

أولاً : القرآن الكريم.

ثانيا : مراجع أخرى.

(أ)

١- أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية ٠د / حسن طبل ٠ ط :١٤١٨هـ - ١٩٩٨م دار الفكر العربى – القاهرة٠

٢- إعـــــراب القرآن ٠لأبى جعـــفر النحاس٠تحقيق:عبد المنعم خليل إبراهيم٠ط: الأولى ١٤٢١هـ ٠دار الكتب العلمـــية، بيروت٠

٣- البحر المحيط ٠لأبى حيان٠الأندلسى٠تحـــقيق/ صدقي محمد جميل ٠ط :١٤٢٠هـ الناشر: دار الفكر – بيروت٠

٤- البرهـــــــان فى علـــــوم القـــرآن٠ للزركشى٠ تحقيق/ أبى الفضل الدماطى ط : ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م ٠ دار الحديث – القاهرة٠

٥- التبيان في إعراب القرآن٠أبو البقاء العكـــبري ٠تحقيق : علي محمد البجاوي ط : بدون ٠ الناشر : عيسى البابي الحلبي – القاهرة٠

٦- التحرير والتنوير ٠ للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور ٠سنة النشر: ١٩٨٤ هـ الدار التونسية للنشر – تونس٠

٧- تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) تحقيق/ عبد الســـــلام عبد الشافي محمد ٠ ط : الأولى١٤٢٢هـ الناشر : دار الكتب العلمية- بيروت٠

٨- تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)٠ ط : بدون الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت٠

٩- التفسير البسيط٠للإمام للواحدى ٠ط: الأولى، ١٤٣٠ هـ٠الناشر:

عمـــادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
١٠- تفسير البغوى (معالم التنزيل في تفسير القرآن) تحقيق/عبد الرزاق المهدي ط : الأولى١٤٢٠هـ٠ دار إحياء التراث العربي – بيروت٠
١١- تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ٠تحقـــيق/ محمد عبد الرحمن المرعشلي الطبعة : الأولى – ١٤١٨- دار إحياء التـــراث العربي – بيروت٠
١٢- تفسير الشـعراوى الطبعة : ١٩٩٧م ٠ دار أخبار اليوم – القاهرة٠
١٣- تفسير الطـبرى (جامع البيان في تأويل القرآن) ٠تحقيق:أحمد محمد شاكر ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م ٠مؤسسة الرسالة٠
١٤- تفسير القرآن ٠للإمام السمعانى ٠ تحقيـق: ياسر إبراهـيم ، وغنيم عباس غنيم ط: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م٠دار الوطن، الرياض٠
١٥- تفسير القرآن العظيم ٠لابن كثير٠تحقيق:محمد حسين شمس الدين الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ٠الناشر: دار الكتب العلمية، - بيروت٠
١٦- تفسير القرطـبى (الجامـع لأحكام القرآن) ٠تحقيق: أحمد البردوني ط : الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م دار الكتب المصرية – القاهرة٠
١٧- التفسير الكبير ٠فخر الدين الرازي ٠الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ ٠ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت٠
١٨ - تفسير المنار ٠للشيخ/محمد رشيد رضا ٠سنة النشر: ١٩٩٠ م الناشر: الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ٠
١٩- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٠ دار صادر- بيروت٠
٢٠- خصائص التراكيب دارسة تحليليـة لمسائل علم المـعانى٠د/ محـمد أبو موسى٠ط: التاسعة ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م ٠ مكتبة وهبة – القاهرة٠
٢١- الدر المصون في علوم الكتـــاب المكنون٠للسمين الحلبى٠تحقيق:

الدكتور أحمد محمد الخراط ٠ط : بدون ٠ دار القلم، دمشق٠
٢٢- روح البيان ٠لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، ط : بدون الناشر: دار الفكر – بيروت٠
٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى٠للألوسي تحقيق: علي عبد الباري عطية ٠ط: الأولى، ١٤١٥ هـ ٠دار الكتب العلمية – بيروت٠
٢٤-زاد المسير في علم التفسير ٠لابن الجوزي تحقيق:عبد الرزاق المهدي ٠ط: الأولى ١٤٢٢ هـ دار الكتاب العربي – بيروت٠
٢٥- صحيح الإمام مسلم٠ المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي٠الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت٠
٢٦- علم المعانى ٠ د / بسيونى عبد الفتاح فيود ٠ ط : الثالثة ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة٠
٢٧- فتح القدير ٠ للإمام الشوكاني ٠ط: الأولى – ١٤١٤ هـ ٠الناشر: دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت٠
٢٨- الفروق اللغوية ٠ لأبى هلال العسكرى ٠تحقيق: محمد إبراهيم سليم ط : بدون ٠ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة٠
٢٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل٠ للزمخشري ٠ط : الثالثة ١٤٠٧ هـ الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت٠
٣٠- لباب التأويل في معاني التنزيل٠للإمام الخازن ٠تصحيح: محمد علي الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ ٠ دار الكتب العلمية – بيروت٠
٣١- لطائف الإشارات ٠للإمام القشيري ٠تحقيق / إبراهيم البسيوني ٠ط: الثالثة الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر٠
٣٢- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ٠د/ فاضل السامرائي ٠ط:

الثالثة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣ م٠ دار عمار للنشر والتوزيع– الأردن٠
٣٣– مجاز القرآن ٠ أبو عبيـــــدة معمر بن المثنى ٠تحقـــيق/ محمد فؤاد سزكــين ط: ١٣٨١ هـ ٠الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة٠
٣٤ – معانى القرآن ٠ للفراء٠تحقيق / أحمد يوســـف النجاتي وآخرون الطبعــة: الأولى الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر ٠
٣٥– معاني القرآن وإعـــرابه ٠للزجاج٠تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي ٠ط: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م الناشر: عالم الكتب – بيروت٠
٣٧– نظم الدرر في تناسب الآيات والســـور٠ للإمام البقـــــاعى ٠ط : بدون الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
٣٨– النكت والعيـــون ٠ للإمام أبى الحسـن الماوردي ٠تحقيق: السيد عبد المقصود ط : بدون ٠ دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان٠
٣٩– الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٠ للإمام الواحــدي٠تحقيق: صفوان عدنان٠ط: الأولى، ١٤١٥ هـ ٠ دار القلم ، الدار الشامية – دمشق٠